عين المدينة

مجلة نصف شهرية مستقلة / العدد 113 / 16 آذار 2018

ريف حلب الشمالي

عدسة أحمد عزيزة - خاص عين المدينة

Ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

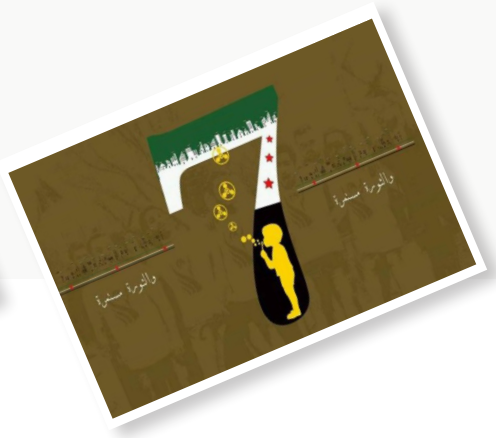

الافتتاحية

الثورة في عامها السابع...وعي الحرية في مواجهة الخرائط الزائفة

هل نحتفل؟ أم نعلن انكسارنا؟

هل نكتفي بالنحيب والعويل؟ أم نعيد حساباتنا الواقعية؟

أهي الذكرى السابعة؟ أم بداية عام ثامن سنعيد في نهايته تذكير أنفسنا بأسئلة لاقيمة لطرحها مالم تجد إجاباتها؟

ثمّة إجابة تأسيسية في وعي السوريين، كشعب يعيش منذ سبع سنوات ذروة لتاريخه الطويل، في كلّ لحظة يقدم فيها شهيداً على طريق حريّته. إنّها الثورة أو إنّها الحريّة.

لكنّ اشتقاق الإجابات الشافية للأسئلة يتعلق أولّا بالموقف والغاية من التساؤل ذاته، وهذه الأسئلة قد تكون هي ما ذكرناها في البداية أو غيرها، مما تفترضه نزعة الحريّة التي أقامت الثورة في وعي السوريين، وحوّلتها إلى فعل عام أطاح عقوداً وربما قروناً من استقرار واهم بإمكانية الحياة في بلد اعتقلتْ وعذّبتْ قوة دفعه الخلّاقة، لبناء مستقبله الذي بترته أنظمة شمولية وقمعية وعسكرية متخلّفة.

في عامها السابع، تبدو الثورة السورية العظيمة على الخارطة في وضع منهك ومترنّح. يجب الاعتراف بهذا، نظام الأسد يحقق تقدماً ميدانياً بالذبح وجرائم الحرب والإبادات والأسلحة المحرّمة دولياً. في مقابل شتات فصائلي متناثر ومتنافر، ومدنيين يقاسون فظائع وأهوالاً لاتستطيع مفردات لغة عرفها البشر أن تصفها.

لكنّها خارطة زائفة ومشوشة، فنظام الأسد ليس سوى الاسم التجاري الراهن، لتحالف واهٍ يجمع هيستيريا بوتينية لاستعادة صورة الدولة العظمى، إلى نزوع قياميّ وطائفي إيراني للهيمنة الإقليمية تحت شعارات زائفة، مع سعار مليشيات إرهابية، متطرفة وتكفيرية في جوهرها، تريد ابتناء بيئة آمنة لتجارة المخدرات والسلاح، والتخلف الاجتماعي والاقتصادي، والانعزالية السياسية والحضارية تحت مسميات دينية ومذهبية، لم تعد تجد حرجاً في إعلان انتمائها إلى حوض النقيض لكل ما يمثّله السوريون في غالبيتهم وأقلياتهم.

والشتات الفصائلي ليس ثورة السوريين في حقيقتها التي هزت العالم بقوة ملايين المدنيين، حين ماجت بهم شوارع المدن والقرى. والذين حملوا قوة السلمية في أرقى صورها، وقوة المقاومة المسلحة في إهاب جيش سموه «حراً»، لمواجهة آلة إبادة بدأت عملها في اللحظة الأولى التي وصل بها خبر مظاهرة سوق الحميدية الدمشقي، معلناً قيام سوريا الجديدة.

الثورة، ثورة السوريين الأحرار، هي وعي باستحالة العودة إلى ما قبلها، وقرار لا رجعة فيه بوطن مغاير لا يقتل أبناءه ولا يعذبهم حتى الموت في مسالخ بشرية. الثورة هي السنوات السبع الماضية بانتصاراتها وانكساراتها، بقوة أملها وفجائعها المؤلمة، بمليون شهيد وأضعافهم من الجرحى والمشردين والمغيبين. وهي أيضاً وحتماً ما ستكون عليه سوريا الحرة، حين يصبح كل هذا الدرس الأعلى كلفة في التاريخ كي لانسمح لطغيان أن يحكم حياتنا.

3 في مدارس ديرالزور بمنطقة قسد نقص حاد بأعداد المعلمين
5-4 الزراعة في دير الزور واقع مأساوي وبدائل غير متاحة
7 تحرير سوريا والشام
9-8 أمهات قاصرات تحت غطاء شرعي وقانوني
14 على من تعود واو الجماعة
15 عريف الصف والقائد الأوحد
17-16 النجومية والشرف... معادلة بلا مجاهيل
19 مروان سوداح..كاتب شيوعي ممانع برأس من حديد

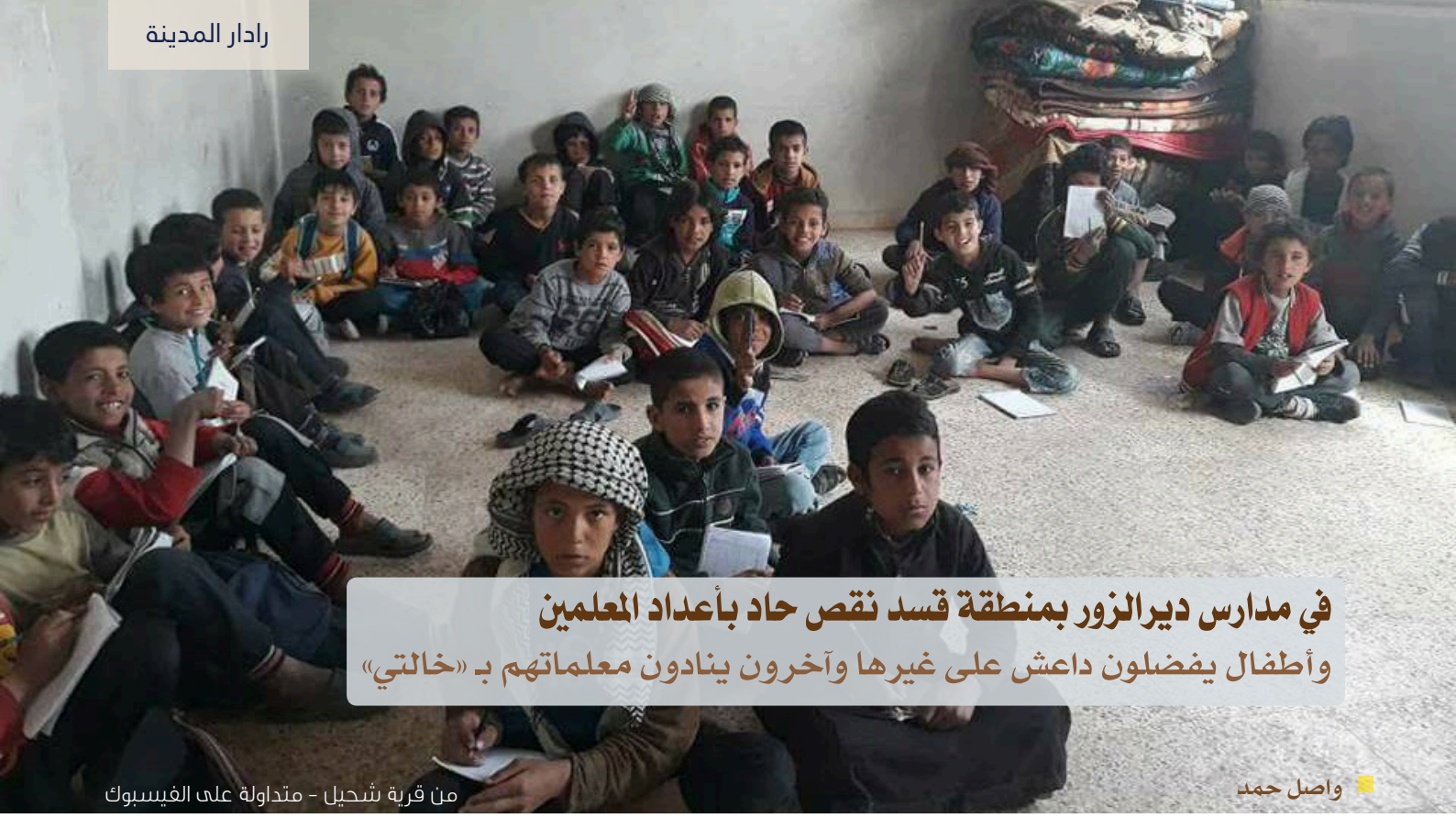

في مدارس ديرالزور بمنطقة قسد نقص حاد بأعداد المعلمين

وأطفال يفضلون داعش على غيرها وآخرون ينادون معلماتهم بـ «خالتي»

من قرية شحيل - متداولة على الفيسبوك

واصل حمد

بعد هزيمة تنظيم داعش وفي المناطق الخاضعة اليوم لسيطرة «قسد» من محافظة ديرالزور، تُواجه قضية التعليم تحديات متنوعة: منها الدمار الكبير الذي لحق بالأبنية المدرسية، ونزوح أو لجوء الكوادر التعليمية إلى خارج هذه المناطق، ثم الآثار التي خلّفها التنظيم في أنفس وعقول الأطفال، خلال مرحلة سيطرته التي امتدت لأكثر من ثلاث سنوات في دير الزور.

تعرضت الأبنية المدرسية في محافظة ديرالزور لتدمير كبير خلال السنوات السابقة، إذ أدّت الغارات الجوية لطيران النظام والطيران الروسي إلى تدمير مئات المدارس، دُمّر بعضها تدميراً كلياً. ومن جانبه استخدم تنظيم داعش بعض المدارس كمقرات ومصانع للمفخخات والعبوات الناسفة، ودمّر في بعض البلدات جدران المدارس بعد نهب محتوياتها، وبحسب تقديرات معلمين من ديرالزور، دُمّر أكثر من 60 % من إجمالي مدارس المحافظة.

في شهر شباط الماضي، قام المجلس المدني التابع لـ «قسد»، وعبر لجان من الأهالي، بافتتاح مدارس في المناطق التي طرد منها التنظيم مؤخراً، مثل بلدات الشحيل والطيانة وسويدان والجرذي وأبو حمام والكشكية وغرانيج، وقبلها في بعض قرى وبلدات الريف الغربي. لاقى افتتاح المدارس اهتماماً كبيراً من الأهالي وتزايدَ عدد الطلاب المسجلين في المدارس المفتتحة، أسبوعاً بعد آخر. وبلغ عدد الطلاب (12) ألف طالب في ثلاث بلدات فقط، هي أبو حمام والكشكية وغرانيج، حسب تقديرات معلمين من هذه البلدات.

يقول أبو عمر وهو عضو في المجلس المحلي لبلدة الكشكية، وأحد المكلفين بالملف التعليمي في البلدة «وعَدنا المجلس المدني بتوفير التجهيزات اللازمة للمدارس، ودفع رواتب المدرسين ابتداءً من شهر نيسان المقبل». خلال سنوات داعش نسي الأطفال الأكبر سناً، ممن مرّوا بتعليم سابقٍ قبل الثورة أو بعدها خلال مرحلة سيطرة الجيش الحر، مفهوم المدرسة ووُلِد أطفال آخرون لم يعرفوا المدرسة أبداً.

تقول الآنسة آمال (معلمة في إحدى المدارس في بلدة الجرذي) إن «طلاباً من الصف الأول والثاني ينادوني بـ خالتي أو يا عمتي أو يا مرة، إذ لم يعتادوا على كلمتي آنسة أو أستاذ». ويقول علي (معلم بمدرسة في بلدة أبو حمام) إنه تعرض لموقف محرج عقب تلاوته آيات من القرآن الكريم، ختمها بجملة «صدق الله العظيم»، فاعترضت إحدى الطالبات بأن هذه الجملة «بدعة» لا يجب أن تُختم بها التلاوة.

آثار داعش في أذهان الأطفال ما تزال ظاهرة بوضوح شديد، وكذلك في طريقة لبسهم وسلوكهم العام، حيث تقصير البنطال ووضع شماخ أسود على الرأس. وينقل معلمون تفضيل بعض الأطفال «الدولة الاسلامية» على أي قوة أخرى، خلال نقاشات تعمّد المعلمون فتحها معهم خارج الحصص الدرسية.

يقول عبد الستار (مدرس رياضيات من الكشكية) إن المستوى العلمي لمعظم الطلاب «دون الصفر»، فطلاب في الصف السادس «يعجزون عن إجراء عمليات حسابية بسيطة في الجمع والطرح».

ومن العقبات والتحديات الكبيرة الأخرى التي تعترض العملية التعليمية، النقص الحاد بالكوادر المؤهلة، بعد رفض المدرسين ذوي الخبرة (المثبتين) في وزارة التربية والتعليم عند النظام الالتحاق بالمدارس، خوفاً من عودة النظام للسيطرة على الجزيرة، وخاصة بعد تصريحات لعدد من شبيحة النظام وتوعدهم بشطب اسم كل مدرس يعمل مع قسد، وتصنيفه كـ «خائن». هذا النقص في عدد المعلمين المؤهلين، دفع المسؤولين عن التعليم في المناطق الخاضعة لـ «قسد» إلى قبول أشخاص يحملون شهادة التعليم الثانوي «البكالوريا»، مهما كان نوعها، كمعلمين. حتى لو كانوا جاهلين في بعض الحالات بأبسط معارف اللغة العربية. وفي حالات أخرى قُبل بعض مبايعي تنظيم داعش السابقين أو أنصاره كمعلمين في بعض المدارس، ما دفع بعض الآباء إلى منع أبنائهم من ارتياد المدرسة احتجاجاً على تعيين هؤلاء.

الزراعة في دير الزور
واقع مأساوي وبدائل غير متاحة

الحريري - رويترز

فيصل دهموش

استطاع نظام الأسد الأب، عبر استغلاله تطبيق قانون الإصلاح الزراعي، ودعم قطاع الزراعة، وإنشاء الاتحاد العام للفلاحين، من كسب دعم اجتماعي في دير الزور لسلطته السياسية الناشئة آنذاك، بحيث أبقى السلطة الحاكمة محتكرة للثروة ومتحكمة بها لضمان الولاء السياسي في المنطقة. إلا أن واقع الزراعة اليوم، لا يبدو أنه يتيح تطبيق مثل تلك المعادلة مجدداً لنظام الأسد الابن، بل ستكون، على الأغلب، عاملاً من عوامل عدم الاستقرار فيها.

تشكل الزراعة، بشقيها النباتي والحيواني، في دير الزور، الوجهَ الأبرز للاقتصاد والأنشطة التجارية والبشرية في المحافظة، إذ يعمل (43) % من السكان في القطاع الزراعي، وفقاً للتعداد الزراعي السوري 2004. ويعتمد الفلاحون والمزارعون والمربّون في مداخيلهم الرئيسية وأمنهم الغذائي على إيرادات محاصيلهم الموسمية، وتربية الحيوانات المزرعية. كما تشكل تجارة المحاصيل الزراعية والمنتجات الحيوانية ومشتقاتها مداخيل أساسية لقسم غير قليل من سكان دير الزور. ولطالما كان الدعم المقدم من نظام الأسد لقطاع الزراعة، عامل استقرار اقتصادي للمزارعين والفلاحين ومربي الأغنام في دير الزور.

تبلغ مساحة الأراضي الزراعية المزروعة فعلياً في محافظة دير الزور (174644) هكتاراً، نسبة 86% من مساحة الأراضي، يتم سقايتها من الآبار ونهر الفرات بواسطة محركات الديزل، أو من خلال مشاريع الري الحكومية في ريف دير الزور الشرقي، بينما تعتمد (24000) هكتاراً على مياه الأمطار. وتختص محافظة دير الزور مع محافظتي الجزيرة السورية: «الحسكة، الرقة»، بزراعة المحاصيل الاستراتيجية: «القطن، القمح، الشعير، الشوندر السكري»، هذا التخصيص يأتي ضمن سياسات نظام الأسد الموجهة بتقسيم سوريا إلى قطاعات إنتاج زراعي متخصصة.

واقع الزراعة وضعفها

على الرغم من ازدهار الزراعة في بداية تطبيق قانون الإصلاح الزراعي في عهد نظامي البعث والأسد، من خلال التسهيلات والدعم المقدم من الدولة: «قروض مالية، بذار، سماد، أعلاف وأدوية بيطرية»، إلا أنها تدهورت في الجزيرة السورية عموماً بفترات متقاربة، في بداية الثمانينيات والتسعينيات، بسبب سنوات الجفاف في المنطقة. وازداد الوضع تدهوراً بانتشار ظاهرة التملح التي طالت مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، بسبب اتباع طرق الري التقليدية والإسراف في ري المحاصيل، في وقت عجزَ فيه التخطيط الحكومي عن اجتراح حلول جذرية لمواجهة هذه المشكلة المتفاقمة.

وفعَل الانخفاض الشديد في الثروة المائية فعله بالزراعة، حيث كانت الاحتياجات المائية الكبيرة لري محاصيل: «القطن والقمح والشعير» سبباً رئيسياً له، إضافة إلى انتشار المشاريع الخاصة الممولة والمحمية من قبل مسؤولي النظام، وحفر الآبار غير المرخصة بكثافة في الجزيرة السورية بشكل عشوائي، أدى إلى استنزاف الثروة المائية في المنطقة، وجفاف نهر الخابور. فضلاً عن انخفاض إنتاجية الأراضي الزراعية بسبب تذرذر حيازات الأراضي بفعل الإرث، إذ أن قانون الإصلاح الزراعي الذي منع بيع وتأجير الأراضي الزراعية، لم يمنع توريثها.

إضافة إلى ما سبق، تلقّى قطاع الزراعة في سوريا الضربة الكبرى في بداية عام 2001، بسبب انخفاض أسعار القطن والقمح في السوق الدولية، ومن ثم ارتفاع أسعار النفط عام 2005، ما أدى إلى تحرير قطاع المحروقات، تبعه رفع الدعم عن الزراعة. تزامن الإجراءان مع سنوات جفاف في المنطقة، شكلت تهديداً اقتصادياً وغذائياً لقطاعات واسعة من السكان المحليين، وأدت إلى هجرة الكثير من المزارعين والعاملين بالزراعة باتجاه المدن الكبرى بحثاً عن مصادر أخرى للدخل.

في مواجهة هذه المشكلات المتراكمة عمد نظام الأسد إلى إنشاء صندوق الدعم الزراعي عام 2008، كحل إجرائي لإبقاء عجلة زراعة المحاصيل الاستراتيجية قائمة، وإلى توزيع أغنام على الأسر الريفية كقروض عينية، عبر مشروعي: «تنمية المنطقة الشرقية، تنمية البادية»؛ إلا أن الفساد والمحسوبيات وسوء التخطيط الحكومي مرة أخرى؛ كانت من أبرز أسباب فشل

المشروعين، اللذين عجزا عن التأثير في القطاع الزراعي.

التأثير الكارثي للحرب

استمر تدهور القطاع الزراعي في محافظة دير الزور، على مدى السنوات الخمس الماضية، حيث توقفت الجمعيات الفلاحية والوحدات الإرشادية عن تقديم الخدمات والمساعدات للفلاحين والمربين؛ وازدادت صعوبة تأمين مستلزمات الزراعة وغلائها؛ فتوقف القطاعان الخاص والتعاوني بشكل شبه كلي، ما أدى إلى تراجع نسبة الأراضي المزروعة بحوالي (60) %، بحسب تقديرات منظمة الأغذية والزراعة FAO. (قارن الأرقام الخاصة بديرالزور مع الإنفوغراف بعموم سوريا) إضافة إلى انخراط الكثير ممن يعملون بالزراعة في الأعمال العسكرية، أو في اقتصاد الحرب، الأمر الذي انعكس سلباً على العديد من الأراضي الزراعية الأخرى التي تُركت بوراً لعدة مواسم، وأصبحت تحتاج لعمليات استصلاح زراعي مكلفة لإعادة خصوبتها. ناهيك عن الدمار الحاصل بالبنية التحتية الخاصة بالزراعة بنسبة تجاوزت (35) %، وفق ما أعلنت مديرية الزراعة بدير الزور، خصوصاً مشروع الري في الريف الشرقي.

يُلقي هذا الواقع المأساوي للقطاع الزراعي بثقله على قوى الأمر الواقع في منطقتي النفوذ في دير الزور، نظام الأسد و(مجلس سوريا الديمقراطية)؛ خصوصاً إذا ما علمنا أن الدعم اللازم لإعادة إنعاش قطاع الزراعة في سوريا يحتاج إلى (12–17) مليار دولار أمريكي وفق تقدير منظمات دولية.

تجاهل ومحاولات بائسة

لم تدرْ عجلة الزراعة في محافظة دير الزور حتى الآن، ليس لعدم استقرار الأوضاع السياسية والأمنية فيها، ولعدم توفر مستلزماتها الأساسية بشكل كاف، وغلاء أسعار المواد المتوفرة منها فقط، وإنما لعدم قدرة نظام الأسد و(مجلس سوريا الديمقراطية) على حل المشاكل البنيوية في القطاع الزراعي في منطقتي نفوذهما.

ففي حين لم يقم المجلس بأي خطوة في هذا الصدد سوى تأمين مادة «الديزل» بأسعار رخيصة في مناطق سيطرته، فإن ما تروّج له مديرية الزراعة في دير الزور، عن إنشاء (7) وحدات إرشادية في ريف دير الزور الغربي، وتوزيع (1500) حصة بذار زراعات أسرية، وتلقيح بعض الأغنام، لا تتعدى كونها عمليات تجميلية فقط. إذ أن مشكلات القطاع الزراعي أكبر من ذلك، وتحتاج لإمكانيات مالية كبيرة لا يستطيع نظام الأسد تأمينها، خصوصاً في ظل أزمته المالية التي جعلته يرفع الدعم عن الخدمات الأساسية، فضلاً عن أن المنظمات الدولية العاملة في مجال الزراعة، تعمل على اجتراح حلول إسعافية غير تنموية.

الانعكاسات المحتملة للمشكلة الزراعية

لا يبدو، على المدى القريب والمتوسط، أن هناك حلول فعلية للواقع السيء لقطاع الزراعة في منطقتي النفوذ بمحافظة دير الزور، مما يعني عدم قدرة السكان المحليين على تأمين موارد عيشهم، وتهديداً لأمنهم الغذائي. وبالتالي سيكون للمشكلة الزراعية انعكاسات اجتماعية واقتصادية بأشكال متعددة؛ بالدرجة الأولى سيؤثر سلباً على إمكانية عودة النازحين واللاجئين، ففي ظل انعدام البدائل الاقتصادية، غالباً سيفضل قسم كبير منهم البقاء في مناطق أخرى توفر لهم فرص عمل. أما العائدون إلى منطقتي النفوذ، فإن المشكلة الزراعية ستدفعهم للبحث عن بدائل اقتصادية لكسب لقمة عيشهم، ما يؤهل المنطقة مجدداً لتشهد موجة هجرة من الأرياف إلى المدن: «دير الزور، الميادين، البوكمال»، للبحث عن فرص عمل في قطاع الخدمات والمياومة وإزالة الركام، أو الانخراط في الأعمال العسكرية، بالانتساب إلى الميليشيات المتوزعة في المنطقتين.

وعلى الأغلب، ستعمل إيران على استغلال الوضع الاقتصادي المتردي في المحافظة، لصالح مشاريعها السياسية في المنطقة، باستقطاب المزيد من السكان على أساس ديني مذهبي مقابل رواتب مالية شهرية. أما في مناطق سيطرة (مجلس سوريا الديمقراطية)، رغم توفر بعض البدائل الاقتصادية لشرائح محدودة جداً من السكان المحليين، من خلال بعض المنظمات الدولية العاملة في المنطقة، إضافة إلى التحويلات المالية الخارجية، لكن الذين لا تتوفر لهم مثل هكذا فرص أو موارد، فلن يجدوا بديلاً إلا مزاولة بعض الأعمال التجارية غير المستقرة، أو الانخراط بعلاقات زبائنية مع (مجلس سوريا الديمقراطية).

الواقع الطبي في عين العرب (كوباني)

نقلُ دم مخالف وسيروم ملحي لمصاب بالضغط وتُهم بسرقة أعضاء

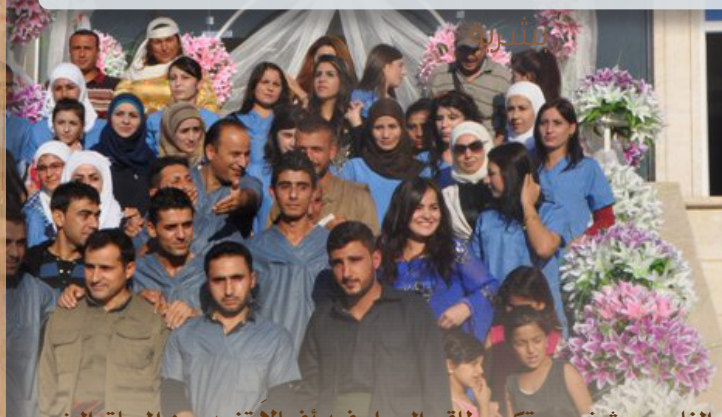

كدر أحمد

كيف يثق الناس بمشفى يرتكب طاقم العمل فيه أفعالاً تزيد من إلحاق الضرر بالمرضى، بدلاً من المساعدة على استعادة عافيتهم؟

بهذه الكلمات بدأ حسن حديثه. حسن يزور يومياً ديانا داخل مشفى الأمل في مدينة عين العرب (كوباني). كادت ديانا أن تفقد حياتها نتيجة خطأ ارتكبه ممرض في المشفى، حين قام الممرض بإعطاء دم مخالف لزمرة دم المريضة، الأمر الذي كاد يودي بحياتها لولا التدخل العاجل للأطباء.

هذا الخطأ ليس الوحيد، فقد نشر الناشط عارف سالم (عبر صفحته على الفيس بوك) بأن امرأة فقدت حياتها في المشفى نفسه، نتيجة إعطائها (سيروم ملحي) وهي مصابة بالضغط. الحادث مرَّ مرور الكرام، دون أن يُجرى تحقيق حوله. يقول عارف لـ عين المدينة إنه من خلال تواصله مع أطباء قريبين من الهيئة الطبية، أكدوا بأن المشفى غير مرخص لدى الهيئة، وهنالك شكوك بشأن إغلاقه نتيجة تلك الأخطاء. فالمشفى كان العامل الوحيد خلال الحرب بين وحدات الحماية الشعبية وتنظيم داعش أواخر العام 2014. الأخطاء الطبية ناتجة عن قلة الكوادر الطبية، لكن المشفى مستمر في عمله حتى الآن.

وتخضع مدينة عين العرب التي يسكنها أكثر من 70 ألفاً للإدارة الذاتية في شمال سوريا، والتي أنشأت هيئات إدارية خاضعة لها، منها (الهيئة الطبية) التي تُسيّر الأمور الطبية، و(غرفة المهن الطبية)، وتقوم بدورها بتعيين العاملين ضمن المشافي والمراكز الصحية. التوزيع لم يتم بشكل مناسب، بحسب ما أكد أحد المرضين والذي ترك المهنة بعد العديد من الأخطاء التي حصلت أمامه. يشرح المرض بأن حياة المرضى في خطر لعدم وجود التعقيم، وغياب الأكاديميين. كما أن التعيينات اقتصرت على الموالين للإدارة، والذين حضروا ورشات دامت لثلاثة أشهر، ليعملوا فيما بعد ضمن هذه المشافي والدوائر، بحسب المرض.

وتابع المرض ذاته بأنه في العديد من المرات كان هنالك حاجة ضرورية من المرضى للدم، ولكن المشفى لم يكن يقدم الدم المتوفر لديه، أو يلجأ إلى بيعه بأسعار تفوق ال 7000 ليرة سورية. ويذهب المرض إلى أن الكادر يُصدر في بعض الأحيان تشخيصاً كاذباً لعدم وجود الأدوية الضرورية.

ويتواجد في مدينة كوباني أربعة مشافي هي، المشفى العسكري ذو الإمكانيات العالية والمقتصرة على معالجة العسكريين، ومشفى الأمل الخاص، ومشفى التوليد (ايكور) ويديره الهلال الأحمر الكردي، وهو المشفى الوحيد الذي يؤمن الأدوية للمرضى بكميات متواضعة، ومشفى كوباني (مشفى فيينا سابقاً)، وقد صادرت (الهيئة الطبية) المشفى من صاحبه، وأعادت تسميته، بعد أن كان يؤمّن كافة مستلزماته من منظمة أطباء بلا حدود.

جميع المشافي تكتفي بالمعاينة، دون أن تقدم الأدوية، الأمر الذي يُحمّل المرضى أعباء إضافية، في ظل فقدان العمل في المدينة، وقلة أجورهم اليومية. على أن عمل الهلال الأحمر الكردي الداعم لمشفى (إيكور) في المدينة سدّ بعض الاحتياجات، وقد استقبل المشفى خلال الشهر الأخير من العام 2017، أكثر من 978 مراجعة، منها معاينات وولادات طبيعية وولادات قيصرية. كما تم إجراء 466 تحليلاً مخبرياً في ذات الفترة، وبلغ عدد الأطفال في الحواضن 42 طفلاً.

وشرح الطبيب نعسان أحمد (مسؤول الهلال الأحمر) لـ عين المدينة بأنه رغم الوضع الجيد نسبياً للمشفى، فإنه يُعاني من نقص في الأدوية والمعدات والأجهزة الطبية اللازمة والضرورية، إلى جانب المعاناة التي يخلقها عدم وجود بنك للدم، وهي من كبرى المشاكل الطبية في المنطقة. يُضيف الطبيب أن «المشفى هو الوحيد الذي يعمل بالمجان في المنطقة، لذلك يقصده الناس من جميع مناطق شمال سوريا، وحتى من الرقة والدير ومنبج والطبقة».

حتى الأمس القريب كانت المدينة خالية من طبيب مختص بالعيون، ولكن مع افتتاح (مركز نور العين) المختص، وتحت إشراف طبيب أخصائي، صار يتأمل المرضى خيراً، بحسب الشاب آزاد من المدينة، ويتابع «لكن المركز يتلقى مبالغ ضخمة، ما جعل مسألة وجوده شكلية».

الجهات المسؤولة عن الوضع الطبي رفضت الرد على استفساراتنا حول شكاوى المرضى وذويهم من المشافي، حتى وصل الأمر إلى تُهم وُجّهت إلى (الهيئة الطبية) من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، بخصوص سرقة أعضاء بشرية -كلى-، نهاية العام 2017 في مشفى كوباني، ما دفعها إلى إصدار بيان جاء فيه أن «مشفى كوباني لا يحتوي على أقسام الجراحات النسائية والتوليد، ولا يوجد فيه قسم الكلية وجراحتها، أو قسم غسيل الكلى».

وأكمل البيان أن مشفى كوباني ومناطق شمالي سوريا تفتقر لإمكانيات نقل الأعضاء البشرية «لعدم توفر المخابر المتخصصة والأجهزة الخاصة والكوادر الطبية المؤهلة لمثل هكذا عمليات». مضيفاً أنهم من خلال مراجعتهم سجلات المشفى لم يجدوا حتى الآن سوى عملية واحدة لاستئصال الكلية، وذلك بسبب حادث سير، لإنقاذ حياة المريض، وكانت «بموافقة الأهل والمرافقين أصولاً»، وفق البيان.

تحرير سورية والشام؟

محمد سرحيل

تكاد معركة هيئة تحرير الشام ضد جبهة تحرير سوريا تدخل أسبوعها الخامس، حيث فشلت للمرة الثانية في حسم المعركة لصالحها، رغم زجّها بمئات المقاتلين. ليبدو قائدها الجولاني عاجزاً عن إنهاء فصيل كان يظنه لقمة سائغة كغيره، وتكاد تكون المرة الأولى التي يقبل فيها مرغماً بهدنة مؤقتة تلو الأخرى، ليعيد فيها ترتيب أوراقه، وتجميع قواته المنهكة.

تشكيل جبهة تحرير سوريا

في الثامن عشر من شهر شباط 2018، وبعد أيّام قليلة من حرب إعلامية شنتها هيئة تحرير الشام ضد حركة نور الدين الزنكي على خلفية اتهامها بقتل أبو أيمن المصري (المسؤول الشرعي في تحرير الشام)، شعرت حركة الزنكي بأن الساعات القادمة ستترجم خلالها «تحرير الشام» حربها الإعلامية إلى حرب عسكرية، استكمالاً لهجوم سابق لم تنجح به الهيئة قبل أربعة أشهر. وكخطوة استباقيّة أعلنت الزنكي وحركة أحرار الشام - من أكبر الفصائل شمال غرب سوريا- اندماجهما في مسمّىً واحد، ضمن تشكيل (جبهوي) لا يحظى بمزايا الاندماج الكامل، تحت قيادة حسن صوفان القائد السابق لحركة أحرار الشام، فيما يشغَلُ توفيق شهاب الدين (القائد العام لحركة الزنكي) منصب مساعد قائد الجبهة.

صدقت تنبؤات الزنكي، وفشلت كل محاولات ثني الهيئة عن خطوتها الحمقاء تلك، كما وصفها «صوفان» في كلمة مصورة في السادس من آذار حملت عنوان «لا بغي على أحد بعد اليوم». حيث دعا فيها هيئة تحرير الشام بعد خسائرها ضد الجبهة، لوقف اعتداءاتها على فصائل الثورة، وطيّ صفحة «البغي» للأبد. معرباً عن استعداده لوقف إطلاق النار بشكل كامل، وإفساح المجال للمصالحة، وصبّ الجهود وتوجيه البنادق إلى نظام الأسد وروسيا.

احتدام المعارك

بدأت المعارك بهجوم للهيئة على عدد من مناطق سيطرة جبهة تحرير سوريا، في كل من أرياف حماة وحلب وإدلب. ميدانياً لم تتمكن الهيئة من التقدم على حساب الجبهة سوى في تقاد وبسرطون وعاجل والهباطة بريف حلب الغربي، فيما خسرت العديد من المواقع في ريفي حلب وإدلب، من أبرزها: الفوج 111 ومدينة دارة عزة وجمعية الرحال وخان العسل والجمعيات بريف حلب، كذلك مناطق في جبل الزاوية، ومعظم قرى سهل الغاب، وأريحا، ومعرّة النعمان بريف إدلب.

ومع قرب انتهاء شهر على المعركة بين الطّرفين، تكبّدت هيئة تحرير الشام خسائر كبيرة في العدّة والعتاد خلال هجومها. وفي تصريح لـ عين المدينة أفاد مصدر غير رسميّ في جبهة تحرير سورية، بأن قتلى الهيئة تجاوز عددهم 350 عنصراً، من أبرزهم الأمنيّ بشير الشحنة والقيادي أبو أويس المغربي، فيما بلغ عدد الجرحى أكثر من 800 جريح، أما عدد الأسرى فقد بلغ قرابة 450 أسيراً، من أبرزهم القياديّان علي وهوب و د. محمد عبد السلام.

أما في العدة فقد خسر الجولاني ثماني دبابات (تم تدمير قسم منها وعطب آخر)، وثلاث عربات (ب إم ب)، إضافة لتدمير ست آليات أخرى ما بين مدفع ورشاش وقاعدة كورنيت. وبالمقابل خسرت جبهة تحرير سوريا قرابة 50 عنصراً بينهم مدنيون حملوا السلاح للدفاع عن مناطقهم، إلا أن القسم الأكبر من هؤلاء الضحايا تم تصفيتهم بدم بارد على أحد حواجز الهيئة بعد أسرهم.

زخم شعبي

تيّار المناوئين لجبهة الجولاني لم يقتصر على حاملي السلاح فحسب، بل كان للمدنيين دور في رد عدوان الهيئة، حيث خرجت مظاهرات في ريفي حلب وإدلب، نددت بـ «تحرير الشام»، وطالبت بطردها من المناطق المحررة. جاء ردّ الهيئة بإطلاق الرصاص على عدد من المظاهرات، منها معرة النعمان، بابيلا، المسطومة وكفرنبل بريف إدلب. وسرعان ما اكتسب الحراك الشعبي ضد الهيئة زخماً أوسع، خصوصاً بعد وقوع العديد من القتلى في صفوف المدنيين، نتيجة قصف الهيئة مناطق استعصت عليها، حيث استخدمت الدبابات وقذائف الهاون وحتى صواريخ الفيل. ووفق خسائر الهيئة التي تزداد يوماً بعد يوم، يبدو أنها لم تقتنع بعدْ بأنها تقود معركة خاسرة، سيّما أن العامل الأيدلوجي الذي تغذّي به عناصرها أثبت فشله أمام العامل المناطقيّ الذي تميّزت به الزنكي!

لماذا هاجمت الهيئة حليفها السابق؟

كعادتها، بدأت الهيئة باجترار الاتهامات الجاهزة التي لطالما رددتها خلال حملاتها ضد العديد من فصائل الجيش الحر سابقاً، منها اتهاماتها للزنكي بإدخال الأتراك، رغم أنها نفسها تحولت إلى هيئة ترفيق للجيش التركي، كما وصفها الباحث في شؤون الجماعات الإسلاميّة عباس شريفة، والذي يرى بأن السبب المباشر لهجوم الهيئة، هو خشية الجولاني من اتصال ريف حلب الشمالي بالريف الغربي من خلال عملية غصن الزيتون في عفرين، وبالتالي فإن الفصائل التي هاجمها الجولاني وهجّرها سابقاً من أرياف إدلب وحلب، ستصبح عامل تهديد مرعب له. أما عن تعمّده ضرب الزنكي -الذي سعى من خلال اندماجه السابق مع جبهة فتح الشام لتأخير المعركة الحتميّة قدر المستطاع- فهو يأتي بهدف إنهاء فصيل منافس تنشط في منطقته العديد من المجالس المحلية التابعة للحكومة المؤقتة، والمؤسسات المدنية، فضلاً عن كونه يحظى بشعبية لا يمكن تجاهلها. وهو ما يقف عائقاً أمام تمكين حكومة الإنقاذ -الوجه الناعم للجولاني-، وتحقيق حلم إمارته، وهو ما يفسّر أيضاً مهاجمة الهيئة لعدد من المجالس المحلية والمؤسسات المدنية، كنقابة محامي حلب الأحرار وغيرها.

أمهات قاصرات تحت غطاء شرعي وقانوني

مصطفى أبو شمس

«للطفل الحق في التعلم والصحة واللعب» لا الزواج. تلك الحقوق المكفولة بموجب مواثيق الأمم المتحدة، التي حددت تعريف الطفل بـ«كل إنسان لم يتجاوز الثامنة عشر من العمر»، والمنتهكة في واقعنا السوري بمختلف أطيافه. ليغدو الزواج المبكر أو زواج القصّر أهمّ تلك الانتهاكات، بغطاء قانوني وشرعي، دون الوقوف على الآثار الإيجابية والسلبية لما يخلّفه هذا الزواج، على الصحة النفسية والبدنية وبنية المجتمع.

أمام مشفى النسائية والتوليد في مدينة إدلب، حملت أم محمد حفيدتها الصغيرة بمراسم جنائزية. لم توزع الحلوى كعادة أبناء المناطق الريفية فرحاً بالمولودة الجديدة. ضمّت صغيرتها التي أصبحت يتيمة الأبوين قبل أن تصرخ صراخها الأول، واكتفت بالنحيب. «إيمان صغيرة.. كل الحق عليي»، تلك الكلمات التي رافقت أم محمد وهي تلوم نفسها على تزويج ابنتها ذات الثلاثة عشر ربيعاً، «ما حدا رضي يستقبلا، القابلة قالت انو جسما ضعيف ولازما قيصرية، لسا بالشهر السابع». روت الجدّة وهي تنظر في وجه حفيدتها وتغص بدموعها «من شهرين استشهد أبوها واليوم ماتت أمها، شو كان لازم أعمل، أنا أرملة وعندي خمس بنات، اجا نصيبا وزوجتا، يا ريتني ما جوزتا».

إيمان ليست غريبة عن أقرانها من الفتيات، فالكثيرات في سوريا يشاركنها الحال نفسه، وإن كنّ لم يشاركنها المصير ذاته. إلّا أن ظاهرة الزواج المبكر قد تحوّلت في السنوات الأخيرة إلى القاعدة، في الوقت الذي صار فيه زواج الراشدين (فوق 18 سنة) هو الاستثناء. تقول الطبيبة صبحية الأحمد «أكثر من 50 % من النساء اللاتي تراجعن عيادتي هم دون سن 18، بينهن عدد لا بأس به من القاصرات دون سن 15».

دعاء طفلة في الخامسة عشر من العمر، كانت تحلم منذ سنة ونصف السنة بأن يصبح لديها «جهاز خليوي حديث وواتس آب»، كان ذلك الدافع لها للقبول بالزواج بعد أن حقق لها زوجها ذلك الحلم. اليوم، تحمل دعاء طفلها الأول «كثير بنسى أنو عندي ولد، لما بيبكي بظن أنو الصوت جاي من مكان بعيد». تطقطق دعاء بسرعة رسائل على الواتس آب، تاركة طفلها يلهو في ساحة البيت دون مراقبة. تضحك أمها وهي تقول «ولد بدّو يربي ولد». في الوقت الذي تحاول فيه رابعة طرق أبواب المحاكم الشرعية لتسجيل طفلها بعد أن مات زوجها المهاجر في إحدى المعارك، وترك طفلها مجهول النسب.

تتعدد الأسباب التي فاقمت من انتشار هذه الظاهرة في سوريا، تتصدّرها ظروف الحرب التي عززت من الثقافة الاجتماعية الموروثة، والتي اعتبرت أن شرف المجتمعات مرتبط بالحفاظ على شرف الفتيات، لتغدو كلمات من مثل «زوجناها لنستر عليها» والدعاء «الله يستر عليكي» و «الله يبعتلك نصيبك ويريحني»، هي الكلمات الأكثر شيوعاً بين الآباء. يقول المدرس محمد الأسعد (مرشد نفسي) «الخوف من جسد المرأة وتصرفاتها، مع انعدام الأمن والقانون في سوريا، شكّل عقدة عند معظم الآباء. وهذا ما أدى بهم إلى تزويج بناتهم كيفما اتفق، دون الوقوف على شرط السن والكفاءة». وأدّى عدم القدرة على توفير الأمن المرافق للحرب إلى خلق حالة من عدم الاستقرار الفكري، ما دفع الكثير من الآباء إلى الارتماء في حضن الفتاوى الشرعية، التي تبيح ظاهرياً الزواج المبكر، دون أن يقف المشرعون الجدد على روح القوانين الشرعية، والشروط المرافقة لها من الأهلية والاستقرار، واختلاف الظروف والفتاوى بحسب البيئة الجغرافية والاجتماعية.

ولا يقل الوضع الاقتصادي للأسر اللاجئة والنازحة، وحتى تلك التي بقيت في مناطقها، أهمية عن ظروف الحرب، في انتشار هذه الظاهرة. وهذا ما دفع الكثير من العائلات لتزويج بناتهم للتخلص من تكاليف الإعالة القاسية، وفي كثير من الأحيان، تزويجهن لرجال من أصحاب المال أو المناصب العسكرية، بما يعود بالفائدة على الأسرة، دون التوقف عند شرط السن، أو حتى القبول بتزويج فتياتهم كزوجة ثانية أو ثالثة، أو لأشخاص مجهولي النسب كـ«المهاجرين» الذين أتوا للقتال في سوريا، دون العودة إليهن للقبول أو الرفض.

يُضاف إلى تلك الأسباب، انعدام التعليم وخروج معظم الفتيات من المدارس في السنوات الأخيرة، وانعدام الحملات التوعوية بمخاطر الزواج المبكر، وغياب الرادع القانوني، ما دفع الفتيات أنفسهن للرغبة في الزواج بدافع العاطفة المحضة، دون المحاكمة العقلية، أو بعقل طفولي تدفعه الغيرة والفضول، في بيئة باتت ترى في تأخر سن الزواج ما يشبه «العنوسة»، فـ «الاحتياط واجب» و «المرة لبيتا وزوجا» و «ما ضل شباب كلهون هاجروا أو ماتوا، منيح الي إجاها عريس»، يقول بعض الذين التقيناهم.

قوانين...ولكن

تنص المادة 16 من القانون السوري على أن «أهلية الزواج تكتمل في الفتى بتمام الثامنة عشر من العمر، وفي الفتاة بتمام السابعة عشر». إلّا أن لهذا القانون استثناءات تحددها المادة 18 من القانون نفسه «إذا ادّعى المراهق البلوغ بعد إكماله الخامسة عشر، أو المراهقة بعد إكمالها الثالثة عشر، وطلبا الزواج. يأذن به القاضي إذا تبين صدق دعواهما واحتمال جسميهما». كما تحدد المادة 40 قبول تثبيت الزواج لمن هم دون سن18 «في حال كانت المرأة حاملاً». وتعتمد المحاكم في مناطق نظام الأسد على هذا القانون، بالإضافة إلى بعض المحاكم في المناطق المحررة. كما تعتمد محاكم الريف الغربي والشرقي في مدينة حلب على القانون العربي الموحد للأحوال الشخصية، الذي ينص في المادة 11 منه «إذا طلب من أكمل الخامسة عشرة من العمر الزواج، فـ للقاضي أن يأذن له به، إذا أثبت قابليته البدنية وبعد موافقة وليه»، بحسب المحامي عبد الحميد بكور.

في حين تعتمد المحاكم الشرعية في محافظة إدلب، على القانون الشرعي، والذي يحدد البلوغ كشرط للزواج يقدّره القاضي من خلال الشكل الخارجي، وبعد موافقة وليّ الأمر. بحسب محمد قباقبجي النائب العام في محكمة إدلب.

على الرغم من إجماع معظم قوانين الأحوال الشخصية العربية على تحديد الحد الأدنى للزواج، إلّا أن هذه الاستثناءات حالت دون تطبيق هذه القوانين، للحد من انتشار هذه الظاهرة. بالإضافة إلى ضعف العقوبات الرادعة لرجال الدين الذين يعقدون الزواج لقاصر لم يتم الثامنة عشر من العمر، ودون تدوين رضى الولي، إذ اقتصرت بحسب المادة 469 من القانون لسوري، بغرامة مالية من (100–250) ليرة سورية.

أرقام صادمة

يقول أحمد الشبلي (رئيس شعبة السجل المدني في ريف حلب الغربي) إن«500 حالة زواج تم تسجيلها في سجل مدينة حلب دون ريفها عام 2017، منها 225 حالة لفتيات دون سن 18 بنسبة 45%، و80 حالة زواج دون سن 15بنسبة 16%». وأما في عقود الزواج الغير مثبتة في المحاكم (عقد شيخ) فتزيد النسبة على ذلك.

وبحسب إحصائية لوزارة العدل السورية 2006، فإن نسبة الزواج للفتيات دون سن 15 كانت 3 % في عموم سوريا، و18 % للفتيات دون 18، لترتفع النسبة اليوم إلى 33 % في مناطق النظام. إذ يثبّت 15 عقد زواج مبكر يومياً، من بين 50 عقد في مدينة دمشق. وتصل هذه النسبة من النازحات السوريات في الأردن إلى 35%، وفي لبنان إلى 32%، وفي مصر 25%، بحسب إحصائيات قضائية وإحصائيات تابعة للأمم المتحدة في عام 2015، في حين تتجاوز النسبة 50 % في مخيمات النزوح السورية، وما يقاربها في المخيمات التركية.

وكانت الأمم المتحدة قد وثقت في تقريرها عن زواج الأطفال 2018، أكثر من 650 مليون امرأة في العالم، معظمهن من البلدان الفقيرة والنامية، بنسبة واحد إلى ثلاثة. كما وثقت موت 70000 (من الفتيات اللواتي تزوجن باكراً) إثر عمليات الولادة والحمل.

آثار صحية

تقول الطبيبة صبحية الأحمد، إن اكتمال الأعضاء التناسلية عند الأنثى واستعدادها للحمل، غالباً ما يتم في العشرين من العمر. وهذا ما يجعل احتمال الإجهاض أو الولادات المبكرة أكبر عند الفتيات دون هذا السن، وما يترتب عليه من أضرار قد تؤدي إلى التداخل الجراحي -عملية قيصرية-بالإضافة إلى النزوفات الحادة، وارتفاع ضغط الدم، وربما الموت. فالفتيات بعمر 10–15 سنة معرضات للوفاة أثناء الحمل والولادة أكثر بخمس مرات من النساء بين 20–24. كما يؤدي غالباً إلى

عدم تمكن الأم من الإرضاع، بالإضافة إلى الآثار النفسية وحالات الاكتئاب.

تغيب الحملات التوعوية لمخاطر الزواج المبكر في سوريا، إذ تكتفي بعض المنظمات المعنية بالحديث عنها في مجمل نشاطها التدريبي، بحسب نسيم توتنجي مديرة اتحاد نسائم سوريا. في الوقت الذي تزداد فيه الآثار السلبية لتلك الظاهرة وخطرها على الفرد والمجتمع.

الرأي الشرعي وجوهره

ذهب الأئمة الأربعة إلى جواز عقد الزواج في سن البلوغ، وهو الحيض عند المرأة والفوران عند الرجل، بموافقة ولي الأمر (الأب -الجد) برضاهما أو من غيره.

إلّا أن الدكتور مصطفى القضاة (كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعة اليرموك) يرى في كتابه (التبكير في الزواج والآثار المترتبة عليه)، أن الشريعة اكتفت بتبيان مقاصد الزواج ومعانيه، فهو عقد نكاح وشراكة. وتركت للأفهام السليمة والفطرة السوية أن تحدد ما يحقق المصلحة في ضوء ذلك. وعلى الرغم من رجوح قول الأئمة لاعتمادهم على النص الشرعي، إلا أن جمهور العلماء رأوا: وإن كانت الشريعة الإسلامية تقر جواز زواج الصغير والصغيرة، فإن ذلك لا يعني أن يكون هو الأصل. فالأصل في الزواج هو الرضا ووجود السكن والمودة بين الطرفين، كما أن الشريعة لا تسمح بالإكراه، فمن باب أولى أن يكون ذلك في الزواج، لما يترتب عليه من آثار خطيرة على الفرد والأسرة والمجتمع.

متداولة لعمال سوريون في كلس

أصحاب الشهادات إلى «الصنعات» والأطفال أكثر حظاً في كيليس

فواز الفارس

لا يشعر الزائر لولاية كيليس التركية بالغربة في شوارعها المكتظة بالسوريين، خاصة أبناء حلب وريفها، الذين صبغوا الولاية بلغتهم المحكية، إضافة إلى اللغة العربية والأسماء التجارية المعروفة لأهالي حلب على واجهات المحلات التجارية، إلّا أن سكانها وحدهم يدركون صعوبة الحياة في الولاية، خاصة مع انعدام فرص العمل وارتفاع أسعار المعيشة في كيليس، المدينة الصغيرة التي تغيب فيها المعامل والمؤسسات والورش الكبيرة، وتضم أكثر من 180 ألف لاجئ سوري.

أصحاب الشهادات العالية (صنّاع في مهن يدوية)

سقوط مدينة حلب بيد نظام الأسد 2016، دفع مالك الحلبي (ماجستير في الاقتصاد) إلى القدوم إلى كيليس باحثاً عن فرصة عمل، «سيرتي الذاتية موجودة عند معظم المنظمات والجمعيات في الولاية، دون أن أتلقى رداً حتى الآن». بعد أن انتهت مدّخراته القليلة، كان على مالك البحث عن فرصة عمل في أماكن أخرى، حتى لو كانت لا تُناسب اختصاصه العلمي ولا تتعلق به «رفَضت المحلات التجارية والمعامل التي طرقت بابها توظيفي، أكثر ما صدمني تلك اللافتات المعلقة على أبواب المحلات، بتحديد عمر صاحب فرصة العمل بما لا يزيد عن 15 عاماً. وأحياناً تحديد الجنس بفتاة». الظروف القاسية قادت مالك للبحث عن عمل يدوي على «دوارات كيليس، مندريس وأردوغان» الشبيهة بعمال المياومة في باب أنطاكية بحلب «بعض الأحيان كنت أحظى بعمل في ورشات البناء أو الدهان أو الزراعة، وبأجرة يومية لا تزيد عن 35 ليرة تركية».

عشرات أو مئات من أصحاب الشهادات الجامعية يبحثون عن فرصة عمل في الولاية، دون جدوى. بعضهم احتال على ظروفه بالعمل في ورش البناء والنجارة والحدادة، وآخرون اعتمدوا على مدخراتهم لافتتاح مشروع صغير (دكان سمانه -تكسي أجرة...)، رغم القوانين الصارمة التي تؤدي إلى إغلاق هذه المحلات أو حجز السيارات، ودفع مخالفات باهظة في حال تم تطبيق القوانين التركية التي «تتغاضى الحكومة التركية عنها خلال السنوات السابقة»، على حد قول أحمد الدرويش (سائق تاكسي).

قوانين صارمة وغياب التطبيق

ليس حال السوريين غير الحاصلين على شهادات علمية بأفضل من سابقيهم، إذ يعاني حتى أصحاب المهن من قلة فرص العمل، وربما انعدامها في بعض الأحيان، إضافة إلى الأجور القليلة التي يتقاضونها، وزيادة ساعات العمل التي قد تصل إلى 12 ساعة يومياً. فـ أبو علي (يعمل في محمصة منذ سنتين) تمتد ساعات عمله، من السابعة صباحاً وحتى الثامنة مساء، بإيجار أسبوعي لا يتجاوز 300 ليرة تركية؛ وهو أقل من الحد الأدنى للأجور الذي حددته وزارة العمل التركية بـ 1603 ليرة تركية. إلّا أن الحاجة دفعت الكثير من السوريين للقبول بأي راتب للحصول على عمل.

معظم السوريين العاملين في تركيا لم يحصلوا على إذن عمل، ولا يتم منحهم الضمان الاجتماعي والصحي. فبحسب دراسة أكاديمية نشرتها صحيفة حرييت التركية، باستبيان ضم 604من العمال السوريين، في آب 2017، قالت «إن 99.6 من الرجال السوريين العاملين في تركيا، و100 % من النساء السوريات العاملات في تركيا، غير مسجلين بشكل رسمي». كما أقرّت الدراسة، بأن 33 % من السوريين يحصلون على رواتب أقل من الحد الأدنى للأجور في إسطنبول. و«تزيد النسبة في غازي عينتاب وكيليس والولايات الحدودية، خاصة مع فرض القوانين التركية على أصحاب المعامل والمؤسسات السورية والتركية أن لا يتجاوز عدد العاملين الأجانب فيها (غير الأتراك) 10 % من عدد العمال، وهذا ما زاد الأمر تعقيداً»، على حد قول المحامي أحمد الحمدو.

الأطفال السوريون أكثر حظاً في العمل

في تقرير نشرته BBC، في تشرين الأول 2016، حول عمالة الأطفال في تركيا «إن أكثر من 400 ألف طفل سوري يعملون في قطاع النسيج وحده في تركيا». لا يحتاج الأمر للكثير من البحث، ففي جولة ميدانية لأي شارع من شوارع كيليس، تجد أن معظم العمال في مختلف المحلات أطفالاً لا يتجاوز عمرهم 16 عاماً، ناهيك عن الإعلانات التي تتصدّر المحلات وصفحات الفيس بوك، والتي تطلب تلك الأعمار للعمل. علماً أن القانون التركي يُجرّم عمل الأطفال دون سن 15(يُحظر عمل الأطفال دون سن 15 سنة. وتُفرض عقوبة السجن لعام كامل بحق أرباب العمل، وغرامة مالية تتجاوز 1600 ليرة تركية، كما ويعاقب ذوي الطفل). وعند سؤالنا عن السبب، أجابنا صاحب أحد المحلات التركية للأدوات المنزلية، بأن «الطفل السوري بحاجة للعمل ليساعد في إعالة عائلته، كما أنه يعمل بجد ودون كلل أو ملل، وهو يتعلم أصول العمل ويتقن لغة البيع والتعامل بسرعة، على عكس كبار السن أو الشبان سواء أكانوا أتراكاً أم سوريين».

ولهذه الظاهرة أسباب أخرى تتعلق بالأجر الذي يحصل عليه الطفل من العمل، والذي لا يتجاوز 600 ليرة تركية. بالإضافة إلى ترك عدد كبير من الأطفال واليافعين للمدرسة، وبحثهم عن عمل من أي نوع، حتى وإن كان بشروط مجحفة. ازداد عدد العاطلين عن العمل في ولاية كيليس بعد قرار البلدية الأخير بمنع (بسطات) البيع (الخضار والألبسة) في شوارع المدينة، منذ بداية 2018، في الوقت الذي يتنامى الشعور عند الأتراك أنفسهم بالحقد على العمال السوريين الذين سلبوهم أماكن عملهم، بحسب استبيان صحيفة حرييت، الذي بيّن أن 73 % من العمال الأتراك و60 % من العاملات، أعادوا سبب انخفاض رواتبهم إلى العمالة السورية.

اللغة التركية العقبة الدراسية الأهم في تركيا

من معوقات التعليم ومشاكل الاندماج لدى الطلبة السوريين

نشوان الصالح

أثناء السؤال عن مشاكل الدراسات العليا للطلاب السوريين في تركيا، قاطعني الأستاذ خالد البرجس، وهو مدرس في جامعة الزهراء، ويبحث في الجامعات التركية عن قبول لمتابعة رسالته في الدكتوراه، والتي توقفت بسبب الأوضاع في سوريا: «أكبر مشاكلنا نحن طلاب الدراسات العليا هي اللغة التركية، فالجامعات الحكومية كثيرة فاق عددها 190 جامعة، وأقساطها زهيدة، لكنهم يطلبون شهادات باللغة التركية، حتى لو كان التدريس فيها باللغة الإنكليزية، اذهب وابحث في التعليم ما قبل الجامعي، وفي القبول الجامعي، هناك تكمن المشاكل».

التعليم ما قبل الجامعي:

أطلقت الحكومة التركية في بداية العام الدراسي 2016–2017 خطة لدمج المدارس السورية بالمدارس التركية، ونقلت الطلاب السوريين في الصف الأول والخامس والتاسع إلى المدارس التركية، وتابع الأول والثاني الثانوي دراستهم في المدارس السورية، بنصف ساعات دوام مخصصة للغة التركية مع مدرسين أتراك. وفي العام الدراسي الحالي 2017–2018 تابعت الحكومة التركية خطتها، لتصبح الصفوف، الأول والثاني والخامس والسادس والتاسع والعاشر من المدارس السورية، في المدارس التركية. ويتابع طلاب الثاني الثانوي دراستهم بنصف ساعات دوام، مخصصة للغة التركية مع مدرسين أتراك أيضاً.

يقول خليل في الثاني الثانوي: «نمضي سبع ساعات دراسية يومياً، ثلاثة منها على الأقل للغة التركية، والبقية لكامل المنهاج العربي. وغالباً لا نفهم على المدرس التركي، والذي يختار الكتاب التركي بشكل كيفي، وهذا ينطبق على بقية الأصدقاء في المدارس الأخرى».

«الخطة جيدة»، يقول أحد المدرسين -فضل عدم الكشف عن اسمه-: «لكنها تفتقر إلى أدوات التطبيق، ولا تحتوي على آليات مراقبة، فنقل الطلاب السوريين إلى المدارس التركية يحتاج إلى تحضيرهم باللغة التركية وفق مناهج مدروسة، ومن قبل مدرسين يتكلمون العربية» ويتابع «لا يمكن لطفل أن يتحول ببساطة إلى تعليم جديد بلغة جديدة. كما أن نقل الطلاب السوريين إلى مجتمع تعليمي تركي بالكامل، ولّد العديد من حالات التمييز بين الطلاب -على أساس سوري/ تركي- من قبل بعض الكوادر التركية، إضافة إلى التنمّر الذي يتعرض له الأطفال السوريون من قبل الطلاب الأتراك، هنا وهناك».

الشهادة الثانوية:

ما تزال الشهادة الثانوية باللغة العربية في المدارس السورية، لكنها مثقلة باللغة التركية. إذ تستحوذ اللغة التركية على ما يقارب 45 % من المعدل العام للشهادة الثانوية. في السابق كان يخضع حامل الشهادة لامتحان معياري للاعتراف بشهادته، لكن هذا الامتحان أُلغي، واستعيض عنه بامتحان كان يجرى للتعليم المفتوح (açık öğretim lisesi)، يتوجب على الطالب فيه النجاح بمادتين باللغة التركية حتى يحصل على اعتراف الحكومة التركية بشهادته، وبالتالي يستطيع المفاضلة على الجامعات الحكومية.

«هناك مدارس خاصة» تقول أمارجي، وهي طالبة بكالوريا: «كالمدارس العراقية والليبية والسودانية، كنتُ في العام الماضي في المدرسة السودانية بعينتاب، والتي تجري امتحان الشهادة على فصلين دراسيين. حيث يأتي وفد من السودان في كل مرة يجري الامتحان، لكن في الفصل الثاني لم يستطع هذا الوفد الحصول على تأشيرات دخول تركيا، وضاع الامتحان النهائي. وهناك المدارس العراقية، لكن غير معترف بشهاداتها في تركيا، وأُوقف الاعتراف بشهادة المدارس الليبية عام 2015». وعن المفاضلة تتابع أمارجي: «في العام السابق كانت المفاضلة على الجامعات الحكومية في الشهر الرابع، لكن هناك أخبار تفيد بتأجيلها حتى الشهر التاسع هذا العام، أي بعد مفاضلة التعليم المفتوح. وتطلب الكليات العلمية، حسب اللغة المعتمدة في منهاج كل جامعة، شهادة (سات)، وهي شهادة معترف بها دولياً قائمة على اللغة الإنكليزية والرياضيات، أو شهادة (يوز)، وهي شهادة معترف بها في تركيا قائمة على اللغة التركية والرياضيات كذلك. بينما لا يحتاج التسجيل في الجامعات الخاصة إلى شهادة يوز أو سات، لكن أقساطها مرتفعة، وتتجاوز 15 ألف دولار سنوياً في بعض الكليات. ويلجأ الطلاب لتجاوز ذلك إلى المنح الدراسية التي تقدمها حكومات وهيئات ومنظمات مختلفة، وللمنح مفاضلات خاصة بها متعلقة بالجامعة والجهة المانحة».

يقول عبدالله، وهو طالب بكالوريا أيضاً: «بعض الجامعات الحكومية الكبيرة في تركيا، ومنها جامعة عينتاب، أصبحت تطلب اليوز والسات معاً، إضافة إلى أن الطالب ملزم بالسنة الأولى في الجامعات الحكومية بدراسة (التومر)، وهو منهاج في اللغة التركية يضاهي التوفل الإنكليزي».

محاولات حثيثة من قبل الحكومة التركية لإتاحة التعليم بجميع مراحله للسوريين، ودمجهم بالمجتمع التركي، كان آخرها التوجيهات للمدارس بفتح دورات تعليم اللغة التركية للأهالي مجاناً، يومي العطلة السبت والأحد. ولا تخلو هذه المحاولات من العيوب أو النواقص، يرى البعض أن على الطرف التركي تحمل مسؤوليات أكثر كالمراقبة والمراجعة لتجنبها، دون النظر إلى دور السوريين في تركيا، وما يترتب عليهم تجاه مجتمع آخر بطبائع مغايرة ولغة مختلفة.

رحلة إلى كوكب الغوطة الشرقية

إبراهيم الطيار

عدسة فادي الشامي - خاص عين المدينة

هل تعلّمت في حصة العلوم أن الظمآن لا يستطيع البكاء؟ وهل أخبرك معلم الفلسفة أن البكاء يكون أحياناً بلا دموع؟ وأنه عندما يكون بدموع لا يكون محض بكاء، وإنما إعلان نهاية يوم اعتيادي تحت القصف في الغوطة.

افتحْ غوغل إيرث، ضع غوطة دمشق في مربع البحث، وقرِّب الصورة أكثر ما تستطيع. هذه ليست قطعة من القمر التصقت خطأ بالخريطة، وإنما هي الغوطة الشرقية. وهذه البقع ليست آثار نيازك، ولا فوهات براكين، وإنما آثار الدمار الذي أحدثه قصف الخردة الجوية المسماة مجازاً بالطائرات، والتي عجز العالم كله عن إيقافها على مدار السنوات السبع الماضية. هل شعرت أنك تشاهد كوكباً آخر؟ شعورك في محله إذاً، فهذا ما يشعر به سكان الغوطة الشرقية عندما ينظرون من كوكبهم إلى الكوكب المجاور «كوكب الأرض».

أرسِلوا مسباراً واحداً إلى الغوطة الشرقية وسيخبركم كل شيء عن أصل الحياة في هذا الكون الميت. لا حاجة للذهاب إلى أطراف المجموعة الشمسية، ولا لتفحّص أقمار المشتري بحثاً عن خلية حية هنا أو خلية هناك.

بدأ هنا أصل الحياة، وكانت الأرض مظلمة ساكنة كمستنقع، وعلى سطح المستنقع كان عرش الدكتاتور يُخيّم على كل شيء، ولا يسمح لنسمة هواء أو بصيص أمل بالوصول إلى الأحداق والصدور. وكانت الشوارع مسارات إجبارية للدوران في حلقات الموت من البيت إلى العمل، وكانت الأجساد جثثاً تسير في الزحام، تُحيّي عراب الموت وتهتف له: بالروح بالدم نفديك يا بشار. وهي بلا روح ولا دم، إلا الدّم المستنزف حتى آخر قطرة، والروح التائهة في الظلمة. ثم وعلى وقع نبضات قلوب أطفالنا تفتّق أول برعم للحرية.

والعالم الذي ما انفك يبحث عن حياة في الكواكب الميتة، هو ذاته العالم الذي سمح لكل أنواع الزومبي بالانتقام من أجمل أشكال الحياة في هذه الرقعة الصغيرة من الأرض، التي رفضت أن تتأقلم مع نتن وظلام وتعفن مستنقعات الاستبداد.

الغوطة اليوم هي ثقب الثورة الأسود الذي تكشَّف كل شيء فيه. المكان والزمان تحت حصار الفيزياء، والأرواح تحت حصار الأجساد المحاصرة. فهل جربت أن تصرخ من داخل ثقب أسود؟ سيرتدّ صراخك إلى أعمق أعماقك، ولن يسمعك أحد، وإن سمعك أحد، فهو أنت، أو نسخة منك في مكان آخر من سورية أو من العالم، وفي الحالتين لن يكون للصراخ جدوى. هو أمر يشبه الاختناق، هل جربت الاختناق؟ والغرق في نفسك؟ في آلامك وجراحك؟

هل جربت أن تنسى أنك حزين على عزيز استشهد هذا الصباح، لأنك كنت منشغلاً بحمل عزيز آخر يلفظ آخر أنفاسه. وعندما عدت إلى منزلك المدمَّر، وقفت أمامه مذهولاً صامتاً، ثم جلست على بعض حطامه لتشرب بعض الماء، بعد أن حصلت على الوقت الكافي لتتذكر أنك عطشان، وعندما ارتويت من الماء تذكرت أنك حزين فبكيت؟

لا أحد يستطيع فهم ما يحدث كالذي في قلب الحدث، هناك آلام غير قابلة للكتابة، وصور تستعصي على الوصف من الخارج، لا بد أن تكون جزءاً من الصورة حتى تكون قادراً على وصفها، وعندما تعيش تلك التفاصيل لا تستطيع نسيانها، لأنها لا تكون جزءاً من ذاكرتك فحسب، وإنما جزءاً منك. الأرشيف هنا ليس ملفات مرصوفة على رفوف الذاكرة، تتناول أحدها كزائر مكتبة، وإنما أشياء أخرى، تغير إيقاع القلب والفكر إلى الأبد. أنت شخص آخر الآن، لا يستطيع فهمك إلا من جرب تفاصيلك. يقولون في الأخبار: من سمع ليس كمن رأى، ويقول السوريون في الغوطة: من رأى ليس كمن رأى.

بعد أن قصفت الطائرة منزلاً، أخرجوا من تحت أنقاضه المدمّرة طفلة ناجية. نفضت عن ثوبها وشعرها الغبار، ونظرت إلى الشمس، وابتسمت. الخروج من تحت الأنقاض وقوفاً، الابتسام تحت القصف، ونفض الغبار، معجزات صغيرة تحدث كل يوم على هذه الأرض التي يُوجد عليها ما يستحق الحياة، كما قال محمود درويش. لكن نسي الشاعر أن يُضيف أن على الأرض من يصنعون الحياة، ومن يتمسكون بها، ومن يستحقون كل ذرة أوكسجين منها.

شكلت إدلب الملجأ الأكبر لعدد كبير من النازحين والمهجرين قسريّاً من مختلف المناطق السورية، وبعد فترة من الزمن، كان لا بدّ من تسرب عادات أهل تلك المناطق وتأثّرها وتأثيرها في الجو المحيط.

«الكشك» إلى إدلب و«الزنانة» إلى الشام

شمس الدين مطعون

تبدأ «دعاء»، سيدة دمشقية من داريا تقيم في إدلب، يومها بالردّ على رسائل الواتس آب، حول مكوّنات وطريقة صناعة بعض من الأطباق الدمشقية من قبل جاراتها، بعد أن تذوقن لأول مرة أطعمة لم تكن حاضرة في مطبخهن. «الفضول والفراغ هو ما يدفع السيدات لابتكار أطعمة جديدة»، تقول دعاء التي تحدثت عن استغراب الكثير من جاراتها من وعاء الكشك والمطحون جيداً (المصنوع من اللبن والبرغل المجفف)، قبل أن تبدأن بالتخمينات المضحكة عن مكونات هذه المركّب الغريب. لتبدأ مبتسمة بتعداد أصناف كثيرة متميزة لم تجدها في المطبخ الإدلبي، كـ «الكشك بطحناج، الكشك منوش، الكشكية بالزيت، الكشك المطبّخ، فطائر الكشك». وكلها أكلات شعبية مشهورة في دمشق، مكوّنها الأساسي هو «الكشك» الذي تصنعه دعاء بيديها.

لجأ الكثير من أهالي دمشق المقيمين في إدلب للبحث عن التوابل والحشائش التي تميّز المطبخ الدمشقي، وتُعتبر مكوّناً أساسياً يدخل في مقادير عشرات الأطباق، وهذا ما دفع أبو هاشم لزراعة مساحة من الأرض خلف منزله بالكزبرة الخضراء (نوع من الحشائش المستخدمة في المطبخ الدمشقي)، ليتحول بيته -ما إن نبتت أوراقها الصغيرة-إلى ما يشبه دكاناً في سوق ساروجه، يؤمّه الدمشقيون للحصول على بعض من أوراق الكزبرة التي كان يزودهم بها أبو هاشم بـ «القطارة»، ليضيفوها إلى الفول المقلّى والشيش برك والملوخية.

وللمدلوقة حكاية أخرى، فبالرغم من الشبه الكبير بين مكوناتها في دمشق (كنافة شعيرية تُفرك يدوياً مع السمن والسكر على النار، ثم تغطّى بالقشطة وتزين بالفستق الحلبي) وبين المعجوقة في إدلب، وللكلمتين نفس البداية والنهاية في أحرفهما، إلّا أن الدمشقيين يحتفظون لأنفسهم بنكهتها الخاصة المرتبطة بـ طقوس «المشوار» نحو محلات «نبيل نفيسة»، وشوارع المدينة المزدحمة والحنين إليها. هكذا يروي لنا محمد الذي تفاجأ بغياب «المدلوقة» عن محلات الحلويات في إدلب، «كنت أسأل عنها في كل محل أدخله، دائما كانت الإجابة بالنفي، وأخيراً قدّم لي صاحب أحد المحلات المعجوقة على حد قوله، في إشارة منه أن الفارق فقط في التسمية»، محمد قال إن فارق الطعم كان كبيراً جدّاً، ولكنه اعتاد الطعم الجديد، وفي كل مرة كان يقول في نفسه «شو جاب لجاب، ويكمل طبق المعجوقة مبتسماً».

في المقابل؛ هناك أطباق عديدة لا يعرفها المطبخ الشامي، وتعتبر أكلات رئيسية في إدلب، مثل العدس بحامض وتتألف من العدس المطهو مع الحمض، والسفرجلية المكونة من قطع السفرجل مع دبس البندورة واللحم وتقدم إلى جانب طبق من الأرز. والزنانة (من أشهر الأكلات في محافظة إدلب وهي غير معروفة إطلاقا في دمشق). والزنانة أكلة موسمية قوامها زيت الزيتون الخارج تواً من المعصرة، ويصب على رغيف من الخبز ويرشّ عليها الكمون والرمان. «اسمها المميز هو ما دفعني للبحث عن مكوناتها، وبعد تذوقها باتت من الأطعمة التي رافقت مائدتي خلال موسم قطاف الزيتون»، تحكي دعاء التي قالت إن «الشوام» تعلّقوا بطعم الزيت في إدلب أيضاً، وزاد حضوره في الأطعمة من نكهتها ومذاقها.

وللمطبخين أكلات مشتركة، ولكن الكثير منها يختلف بطريقة الصنع. وما يميز المطبخ الإدلبي عن الشامي هو النهكة الحارة «الأكل بدّو شطة... وبدونا مالو طعمة» يقول أبو حسن من مدينة إدلب. ويتابع مسترسلاً «الفليفلة الحمرا الحدّة لازم تكون حاضرة مع كل طبخة.. منموّنها كل سنة متل الزيتون والزيت، وهيي صنف أساسي بكل بيت». ويتجلى الاختلاف بين المطبخين الدمشقي والإدلبي باختلاف طريقة الطهو، واستخدام المكونات «فالطعام الإدلبي أكثر دسماً، ويعتمد على استخدام التوابل المتنوعة وبكثرة، وهو أقرب ما يكون للطريقة الحلبية في الطبخ. في الوقت الذي يعتمد المطبخ الدمشقي على الخضراوات واللبن المطبوخ في الكثير من مكونات أطعمته، ويقلل من التوابل للحفاظ على النكهة الحقيقية للأطعمة»، على حد قول أم عبد الرحمن من (داريا).

«لم يعُد الطعام سفيراً لقلب الرجل فقط، بل بات سفيراً لبناء العلاقات الاجتماعية»، تبتسم دعاء التي صنعت منذ أيام طبقاً من الكبة السفرجلية، وحدها دون معونة من جاراتها (الإدلبيات)، بعد أن اكتسبت منهن طريقة صنعها. لم تعد دعاء تشعر بالغربة.. أصبح لها جارات وأحاديث شيقة ومشتركة.. «صار لنا أهل في المكان» على حد قولها.

على من تعود واو الجماعة؟!

رانيا عيسى

«لا تطلعوا من بلدكم حتى لو يهرسوكم زي البطاطا»، جملة السائق التحذيرية تلك أعادت لي صحوي. عقارب الساعة كانت تشير إلى الثانية والنصف فجراً. تذكرت حينها _بعد أن أرغمني تعب السفر على الرّكوع لغفوة_ أنّي في سيارة تُقلني وزملائي إلى أحد فنادق عمان للإقامة مدة أسبوع. كنا قد تجاذبنا حديثاً سورياً بدا هارباً من أسئلة السائق عما يجري، فالغوطة والأحداث الأخيرة كانت نقطة انطلاق الحديث ومنتهاه، والإجابات السورية مقتضبة تحسباً، أو ربما «القلب من الحامض لاوي».

استسلم السائق أخيراً لـ صمتٍ شبه جماعي، تماماً كاستسلامي لتساؤل لغوي عن واو الجماعة في كلمته «يهرسوكم». ترى على من تعود؟ فالبعض منا أتقن فن التأويل في الكلام، وآخرون اختصروا قصتهم مع الحرب في جملة «الله يشنطط يلي شنططنا»، والأغلبية ركنت إلى جملة «الله يطفيها بنورو».

أسرع السائق نحو العاصمة، تماماً كسرعة طرحه للأسئلة. علمت لاحقاً أن لعائلته باعٌ في الهجرة واللجوء (عمره 70 عاما... فلسطيني).

لجوء

باب اللام، ترتيب الجيم فالهمزة، الصفحة (574) من قاموس تاج العروس، وتعني كلمة «اللاجئ» بمرادفها الوحيد: من لاذ بغير وطنه فراراً من اضطهاد أو حرب أو مجاعة. مصطلح بات يُستخدم اليوم كمتلازمة مرضية، أو لعنة تلحق صاحبها في التعليم والعمل والسكن، والارتباط المحكوم هو الآخر بـ«لم شمل» عمره عامان، يكاد يضيق نطاقه حد استحالة حصوله.

بعض المقيمين من السوريين أوصدوا أبوابهم في وجه خاطبين «لاجئين»، بذريعة «يلي متلنا تعوا لعنا»، فـ«المقيمات للمقيمين» و«اللاجئون للاجئات». فرز اجتماعي جغرافي آخر مباغت، فعلى من تعود واو الجماعة؟

لفتة وصفعة

صوت أنثوي يصدح عبر مكبرات الصوت. أسكتَ أخيراً ضجيج مطار بيروت مساء، هناك.. حيث صالة الانتظار، توسّطت شجرة ميلاد بهية، تسلّقتها بفوضوية حبال الإضاءة، ونجوم وأجراس مطليّة، فوجدتُني أحدّق في إحداها لأرى انعكاس وجهي بوضوح، وبـ هالات سوداء تنضح تعباً.

صوت رجولي اصطنع سعالاً كتنبيه مؤدب، كان لـ رب أسرة لبنانية في صف المغادرين، تقف خلفي، أب وأم وطفلان تتقدمهم عربة تعلوها حقائب سفر، أومأت برأسي معتذرة وآثرتهم بدوري، ابتسامة علتْ وجه الرجل ليعينني على حمل حقيبتي حيث الجهاز الفاحص، فأعادها سيرتها الأولى حيث العربة.

اطمأنت نفسي للحدث الذي جاء على خلاف ما خبرته سمعاً، إلّا أن موظف أمن المطار أعاد لنفسي قلقها، التقط أوراقي مقطب الجبين، ماطل في الختم، سألني بلغة العارف، «أين الموافقة؟!» كانت موافقة سفري من جملة الأوراق في يده. «سبب سفرك؟» بادرته بكلمة «ترانزيت» قبل توضيح السبب، لتكون بمثابة ضربة استباقية أدفع بها عن نفسي تهمة غير معلنة عن سبب مجيئي إلى لبنان، كانت كفيلة باختفاء تقطيب جبينه، حتى أنهيت الإجراءات سريعاً، ترى هل تشمله واو الجماعة تلك؟

نزار علي بدر

خلل وظيفي

تحدّث الباحث الكندي تشارلز رايت عن مفهوم الخلل الوظيفي في بحوث الاتصال، يحدث الخلل أثناء تأدية الوسيلة الإعلامية لإحدى وظائفها «الإخبار، التوجيه، الترفيه.. إلخ». كان أن حصل ذلك في إحدى الدول العربية التي باتت تتصدر اليوم قائمة أكثر الدول في تعاطي مواطنيها للمخدرات، كانت من قبل تحاربه عبر حملات لتوعية مواطنيها الذين لم يكونوا يعلمون بوجوده، إلى أن جاءت الحملة الإعلامية مطبوعة بكلمتي «لا للمخدرات» على قمصان لاعبي منتخبات بلادهم، فتفشى تعاطيها بدل أن تُحدث العكس.

اليوم، عدسات الكاميرا تلاحق بفضول مقيت أحياناً حياة السوريين في مجتمعات «لجؤوا» إليها، وأخرى تختلق «صدمة» متلفزة لرصد تعامل مجتمعات أجنبية وعربية مع الوجود السوري في بلدانهم. شعور يطفو تزامناً مع إلحاق كلمة «لاجئ» قبل «السوري» لتصبح شبه ملازمة له، ويتوجب على من وقع في دائرة «اللجوء»، التعايش مع حقوقه الموضوعة منذ 1951، والاحتفاء بيوم 22 يونيو، يقاسمه فيه 65 مليون لاجئ، حسب إحصائية حديثة لمفوضية الأمم المتحدة للاجئين.

استخدام لغوي حريص في إلحاق مصطلح اللجوء بالسوريّ، حتى بات تواتر استخدامها بمثابة تمهيد نفسي لقبول السوري _كأسلافه_ بأزمة مستدامة، قلّصت له إطار الممكن من العيش، وقزّمت في ناظره أفق الحياة بكلمة. تماماً كإحياء دول أمعنت_ فيما مضى _ في الحروب لذكرى شهداء، واختلاق دقيقة صمت حداداً على أرواح ضحايا، بمثابة تبرئة غير مباشرة، وتفلّتٍ من مسؤولية، واعتذار مختصر بكلمة Sorry، تماماً كما فعلت واشنطن في اعتذارها عن ما خلفته من قوافل للشهداء في العراق.

إجابة!

مفارقة لغوية أخرى،«وافد» وتعني: «المقيم في غير موطنه، ووفد إليه: أكرم وصوله وعامله بالحسنى، أو: قابله مُرحباً وأكرمه. تبدو المفارقة ساخرة رغم سذاجتها، لكن الفرز اللغوي الفج جعل من وتيرة الشكوى السورية ثنائية، تتناوب بين العائلة والموطن، تسرع حيث (الصفر)، عند أول مقارنة في تفصيل حياتي ومعيشي، بين ما كانوا عليه وماهم فيه اليوم.

صباح سادس في عمان، والغوطة ما زالت محاصرة مقطوعة السبل، وأخبار سوريا المتلفزة يعلوها لون رمادي عطش. قضيت يومي راجلة أتنقل، أجد سيارات خاصة توشحت بالعلم الهاشمي، أتساءل: «هل انتهت للتو مباراة بين منتخبات وطنية؟»، لكن ملاعب العاصمة تكاد تخلو من مباراة، المشهد تكرر على مدى أسبوع، وعند السؤال، كانت الإجابة في كلام السائق إسقاطاً غير مباشر، اختصر فيها قصته في مبرر جغرافي تاريخي خلاصته «أردني أصيل» لا أردني فلسطيني!

عريف الصف والقائد الأوحد

محمد جلال

لم أتردد أبداً في الموافقة على دعوة إدارة إحدى المدارس الابتدائية، في القرية التي ولدتُ فيها ونزحت إليها في أولى حلقات مسلسل النزوح المستمرة حتى هذا الوقت، لسدّ النقص في الكادر التدريسي، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، والانطلاق في العام الدراسي. الأسباب التي دفعتني للموافقة كانت كثيرة، تبدأ من شعوري بالمسؤولية تجاه هؤلاء الأطفال الذين يعني ابتعادهم عن المدارس بداية انحدار لا يعلم أحد نهايته. كما أني في تلك الفترة، أواخر 2012 وبداية 2013، تركت عملي كـ موظف حكومي، ومثّلتْ لي تلك الدعوة فرصة لملء الفراغ الذي كنت أعيش فيه.

في صف الثاني الابتدائي، الذي تم تكليفي بتدريسيه، حدث خلاف بين الطلاب حول هوية عريف الصف. الطلاب كانوا يستبدلون أسنانهم اللبنية بأسنان ستبقى معهم كل العمر، وبنفس الوقت كانوا يستبدلون براءتهم بعادات أهل القرية التي تعتمد على العنف، وفرض القوي رأيه على الضعيف. لم أكن لأقف مكتوف اليدين أمام ذلك المشهد؛ أنا الذي كانت أفكاري وأحلامي الثورية ذلك الوقت في أوجها، فقررت القيام بانتخابات بين الطلاب لاختيار عريف الصف ونائبه. كانت فرصتي لأملأ في صفحاتهم البيضاء مبادئ احترام الآخرين، وتقبّل الآراء المخالفة، وسيادة القانون، الذي بالمناسبة كنت أمثله كأستاذ، قبل أن يملأها أصحاب الأفكار السوداء الذين راحوا منذ ذلك الوقت يتسابقون لغسل أدمغة الأطفال والمراهقين لصالح مشاريعهم.

كانت، ولازالت، مشاركتي في أي انتخابات حقيقية حلماً لا أظن أنه سيتحقق يوماً. ولطالما شعرت بنفسي كاليتيم الذي يشاهد حفلة عيد ميلاد ابن الجيران، وأنا أتابع أخبار أي انتخابات حرة تجري في هذا العالم اللئيم الذي لا يُلقي بالاً لأيتامه. كانت فرصة تنظيمي لانتخابات حرة في الصف الثاني، في إحدى مدارس قرى ريف حلب، هي ذاتها عيد الميلاد الذي قام به ذلك اليتيم بعد انتهاء حفلة الجيران، ولم يشاركه فيها إلا ألعابه.

بدأت الانتخابات بالطلب من الراغبين بالترشّح لمنصب العريف رفعَ أيديهم للنظر في طلبات ترشيحهم، ولا غرابة أن كل الصف كان راغباً بالترشّح، فكل سكان هذا البلد يرى في نفسه قائداً. كان عليَ التدخل باعتباري «الدستور»، وقبول أربعة طلبات فقط ممن تتوفر فيهم الكفاءة لشغل هذا المنصب، كـ قوة الشخصية والمستوى الدراسي الجيد، مع مراعاة تمثيل كافة الأحزاب السياسية في الصف. في الحقيقة لم يكن في الصف إلا حزبان تشكّلا على الفور بعد الإعلان عن إجراء الانتخابات. حزب البنات وحزب الأولاد. المرشحون زهرة وحلا من حزب البنات ومحمد ومشعل من حزب الأولاد. في مرحلة التصويت طلبت من الطلاب اختيار مرشحهم، كلاً على حدة. بينما رحت أوزّع الأصوات على قوائم المرشحين في السبّورة. تلك كانت هفوة لم أنتبه لها إلا لاحقاً، فالتصويت العلني أثّر على قرارات بعض الناخبين. حزب البنات صوّت بالكامل لمرشحتيه زهرة وحلا، فنالت حلا تسعة أصوات مقابل ستة لزهرة. حزب الأولاد كان أكثر دهاءً، وتميّز بتقديم المصلحة الحزبية على المصالح الشخصية. فالكل اتفق على التصويت لـ مشعل كي يكون العريف من حزبهم، وهذا ما كان بعد إعلان النتائج. لم يشذَ عن هذا الاصطفاف الحزبي إلا أحد الطلاب الذي فاجأ الجميع بالتصويت لحلا. لم أعرف إذا كان ذلك الطالب يجد بـ حلا الأجدر بالمنصب، متجاوزاً المصالح الحزبية، أم أنه كان معجباً بجمالها.

تم تخيير العريف مشعل بشأن نائبه، ففضّل مشعل اختيار حلا لهذا المنصب، كي يشكل ائتلافاً يستطيع من خلاله السيطرة على الصف، وتقليل احتمالات لعب حزب البنات دور المعارضة المعطِّلة.

أُعلنت النتائج أمام الطلاب، وقدمت شرحاً مبسّطاً عن مهام العريف الذي سوف يمثل الصف أمام المدرسين والإدارة، ويعمل على حل مشاكل الصف وتقديم كل مفيد له. ونصحت الطلاب بتقديم شكوى ضد العريف ونائبته في حال تجاوزهما مهامهما الدستورية والقانونية. انتهت العملية الانتخابية بنسبة نجاح ممتازة، لا ينقصها إلا ممارستها لوقت طويل، حتى يدرك الطلاب من الأجدر في نيل أصواتهم وتمثيلهم بالشكل الأمثل.

توجّهتُ في الفرصة إلى الإدارة، لأقدم لهم وللمدرسين لمحة عن التجربة الديموقراطية التي يعيشها صفنا. لم يستطع المدرسون كتم ضحكاتهم، وأنا أسترسل مزهواً في شرح مجريات اليوم الانتخابي، بينما بدت علامات الامتعاض على وجه المدير وبعض المدرسين الذين يميل هواهم باتجاه نظام الأسد، فالأفكار التي تم تقديمها للطلاب خطيرة جداً، وستبدأ دق المسامير في نعش القائد الأوحد. لم يمنعهم من طردي من المدرسة إلا أننا في المناطق المحررة، ومن المحتمل أن يتسبب عملهم هذا بمواجهة مباشرة مع ثوّار المنطقة.

قطعَ كل ذلك أصوات عالية قادمة من الباحة. كان الطلاب يصرخون بكل ما لهم من قوة في حبالهم الصوتية، مثلما كانوا يفعلون أيام احتفالات طلائع البعث. اقترب الحشد من باب الإدارة وهو يهتف «مشعل، مشعل، مشعل». كان مشعل محمولاً على الأكتاف، والجماهير العريضة من حوله تحتفل بالإنجازات التي حققها منذ توليه منصب العريف، قبل عشر دقائق. لم تكن صفحة هؤلاء الأطفال بيضاء كما ظننتها، بل سبقني إليها عشرات الأعوام من الحكم الشمولي، الذي نقل لهم حب وتقديس القائد عن طريق مورثات آبائهم.

لم يتمالك أحد نفسه من الضحك، كذلك أنا ضحكت كما لم أضحك من قبل. وتخيّلت المدير، الذي كان ينظر لي بمكر، وهو يقول بصوت عادل إمام «بتحط نفسك بمواقف بايخاااا».

النجومية والشرف... معادلة بلا مجاهيل

سهيل نظام الدين

تُقيّم كلّ كارثة إنسانية يصنعها البشر بيئاتها الثقافية المتضادة، وهذا أمر شائع حتى في نطاقات ضيقة وثأرية. لكنه يُصبح أكثر وضوحاً وقوة وأثراً في امتداده الإنساني والتاريخي، حين يتعلق الحال بحدث كبير وعميق ذي نتائج عابرة للبعد المحلّي، إلى كونه كارثة بالمعنى الشامل لعلاقة البشر بمفاهيمهم عن الخير والعدالة والحق والحياة والحرية، ونقائضها التي اعتادت جلّ ثقافتنا على رفضها، واعتبارها تُنافي معنى وجودنا كبشر متحضرين.

وفي حين أنّ التعاطف مع الضحايا في حالات الكوارث الطبيعية يتميز عموماً بالسهولة والوجوبية، فإنّ الحروب عادة ما ترمي بثقلها الضاغط على الشخصيات العامة -لا أتحدث هنا عن الساسة وقادة الرأي-، وتدفعهم نحو مواقف حديّة، تنبش أصول تفكيرهم وثقافاتهم ومواقفهم من القيم الأساسية للحياة.

خلال عُمر المقتلة السورية، ظهرت مواقف متباينة وتمايزات ملفتة في طريقة التعاطي، بين شخصيات عامة ذات حضور عالمي طاغ، وبين شخصيات سورية يُفترض أنّها أقرب إلى الحدث المروّع، وأكثر إحساساً بوحشية الإبادة التي يتعرض لها المدنيون السوريون. واللافت أنّه في حين كانت أراء النجوم العالميين أميَل إلى التعاطف مع الضحايا، فإنّ من بين السوريين «النجوم» من أظهرَ علانية بغيضة في دعم القتلة، والتبشير بالإبادات الطائفية تحت ذرائع تكرّر سردية نظام بشار الأسد وحلفائه حرفياً.

هل هناك حاجة لإيراد بعض أمثلة سورية؟ ربما يمكن الإشارة، كأرضيّة تُنشّط ذاكرة المقارنة، إلى ممثلات سوريات -يوصفن عادة بالجميلات-، وهنّ يتشدّقن على صفحاتهن في وسائل التواصل الاجتماعي بـ «بطولات» إرهابيي حزب الله والحرس الثوري والحشد العراقي، على جثث أطفال حلب وداريا والغوطة الشرقية ومضايا والزبداني وغيرها الكثير، أو إلى صورة متداولة لممثل يُقبّل «بسطار» عسكري عاد لتوه من مهمة قتل، أو إلى مراثي شعراء وكتاب لطيار روسي أُسقطت مقاتلته. ولعلّه يمكن التلميح إلى خلفيات ثقافية محددة وراء هذا، لكنه سيكون تعميماً جائراً. فـ«التشبيح النجومي» يمتد على رقعة واسعة تطال جميع الانتماءات والخلفيات، وإن كان يجب التنويه بصراحة إلى أنّ سياسة «تطييف الواجهات الثقافية والإعلامية والفنيّة» جعلت هذا الاستنتاج ممكناً؛ لأنّ معايير الوصول إلى موارد الشهرة في سوريا، لطالما كانت في وضع مشابه لمعايير الوصول إلى المناصب والأموال العامة، وهذه وتلك مرتبطتان بقرارات أجهزة المخابرات، إلّا في حالات نادرة جداً.

ويقتضي الإنصاف هنا أن نذكر أنّ ثمة في صفوف المعارضة من ينتسبون بحكم الاعتياد إلى هذه الظاهرة، وبعضهم مازال يحتفظ بإحساس أولوية «النزعة الأقلوية»، كحصانة لمنح تعاطفه وقعاً أكثر أهمية. والمتابعة السريعة ستكشف أنّ ردود الأفعال على الشنائع التي تحدث في سوريا، سواء من قبل النظام وحلفائه، أو داعش والنصرة، أو من قبل فصائل محسوبة على المعارضة، تأخذ طابعاً متغايراً في حدّته بحسب هوية الضحية. في المقابل هناك «نجوم» من المثقفين المعارضين يعتقدون، كنزعة أكثرية تدّعي البراغماتية، أن داعش يمثل استثماراً مقبولاً بصورة مؤقتة للإطاحة بالنظام.

مالذي يثير هذا الأمر في سوريا كل مرة؟ إنّها ببساطة لفتةٌ من نجم عالمي مثل لاعب ريال مدريد الأشهر كريستيانو رونالدو الذي نشر، لسبعين مليون متابع له، فيديو يتعاطف فيه مع أطفال الغوطة، وهم يذبحون تحت قصف لا يتوقف. في حين كان نجوم فريق كرة القدم السوري يحصلون على امتيازات احتكارية وتجارية من القتلة.

رونالدو لا يحتاج إلى تبنّي قضيّة من أيّ نوع ليزيد شهرته -الواقع أنّ كلّ متر يقطعه في الملعب يضخّ مزيداً من الشهرة في رصيده-، لكنّه شابّ ينتمي إلى بيئة تفهم معادلة بسيطة، «قتل المدنيين جريمة، وقتل الأطفال وحشية لا يمكن إسنادها إلى أيّ مبرر». إنّه ببساطة أكثر وضوحاً «شخص يكترث» إن رأى صوراً

لأطفال ونساء ورجال -بل وحتى حيوانات منزلية-، وقد تمزقت أشلاؤهم تحت هول ضربات عشوائية وهيستيرية، من البراميل المتفجرة والقنابل الارتجاجية والغازات السامة. هي معادلة بلا مجاهيل تتعلق بحدّي الضمير والموقف، «لا يكترث» لها أقرانه الرياضيون الشبيحة الذين يهرعون إلى رفع قمصان المنتخب عند أي مناسبة، لتظهر تحتها صورة سفّاح الغوطة، وكأنّها صورة لطوق حصار الغوطة، بين جسد اللاعب الذي حقق فوزاً وبين معنى فوزه الذي سيقدمه للناس، هي مشهدية تقتل انتماء هذا الفريق إلى من يُفترض أنه يلعب باسم بلدهم.

في واجهة أخرى تحمل طابعاً تأكيدياً، هناك فارق كبير بين حضور رونالدو النجم الأسطوري ذي الجسد المنحوت كآلهة إغريقية، وبين حضور أهمّ عقل فيزيائي في العالم بعد آينشتاين، وهو البروفيسور ستيفن هوكينغ الذي توفي منذ أيّام قعيداً على كرسيه المتحرك؛ لكنّه من عزلته الكونية وعجزه الحركي

المطلق، كان قادراً على تحريك غضبه من المذبحة وأطلق صرخته الغاضبة ضد عالم اعتبره يخوض في بدائية الصمت، على مقتلة ستظل صورها تحوم في الكون إلى الأبد.

المقارنة مؤلمة في ابتعادها عن منطق «عقل الانتماء»، وتفسير مهمّة النجم بقليل من الشرف، إذ أنّ مقابلة الصورة التي يقدمها لاعب كبير لدور النجومية الإنساني، بصورة هوس البروفيسور هوكينغ بمصير الكون، ستقود إلى نتيجة أساسية، وهي أن دورنا كبشر، نسعى إلى تخليد أدورانا الحياتية المؤقتة، مرتبط برفض فكرة الفناء التي تتحول إلى أداة منهجية للبقاء عند نظام كنظام بشار الأسد. هنا تقع المفارقة الكبرى بين التزام عالمٍ بتفسير الحياة، وانهماك آخر في اختراع أدوات إبادة عشوائية مقابل فتات من المال والسلطة، قد لا تتجاوز بطاقة أمنية تؤمن مروراً سهلاً على حاجز إيراني في شوارع دمشق.

خذوا نموذجا أكثر «جمالاً» من سابقيه، السيدة إنجيلنا جولي، أشهر من أن تُعرّف، اسمها يمنح أيّ فيلم طوابير طويلة من المشاهدين، وهي منذ بدء حرب بشار الأسد على السوريين تزرع الأرض من مخيم لاجئين إلى آخر. وبينما هي تتحدث أمام الأمم المتحدة عن مأساة ملايين الأطفال السوريين، كانت إحدى زميلاتها السوريات تنظم احتجاج الصدور العارية الشهير، دفاعاً عن مبدأ قتلهم بالسارين وغازات الأعصاب الأخرى، وثانية تخطو فوق الجثث في داريا، وثالث يهيمُ في ولهٍ مقزز بشخصية إرهابية مختلة كقاسم سليماني.

جولي لاتحتاج إلى أن تبدو أكثر شهرة، والأطفال الذين تُجالسهم في مخيمات الأردن ولبنان وتركيا قد لا يتمكنون من إضافة دولار واحد إلى عوائد أفلامها، غير أنّها تقدّم ما تفهم أنه الغرض النهائي لدورها... يجب ألا يموت الأطفال من الجوع، كي يُمكن للرخاء أن يُنتج فناً أفضل.

لا نتحدث عن أنبياء، وليس من الضروري أن يكون المرء نبياً ليدرك حق الضحايا بموقف شرف. ابحثوا في الإنترنت وستجدون سيراً مليئة بما نعتقد، حسب ثقافتنا، أنها أخطاء شخصية ارتكبها رونالدو وهوكينغ وجولي، لكن عندما يتعلق الأمر بدرجة الاكثرات لإبادة جارية، من «سيكترث» لتفاصيل صغيرة كهذه؟....إنه أساساً سؤال في الشرف قبل النجومية.

كيف تنشر الحربُ العنفَ كثقافة في حياة الناس اليومية

أليانذو مويا
جريدة El Espectador الكولومبية
20 شباط
ترجمة مأمون حلبي

جماعة فارك

لقد طال أمد النزاع الأهلي في كولومبيا، لدرجة أن كثيراً من الناس العاديين أخذوا ينظرون إلى العنف الغير مبرر، بصفته أمراً اعتيادياً، وحتى أمراً جديراً بالإعجاب في بعض الحالات.

بالأمس القريب، تحدثت الصحافة الكولومبية عن فتاة في الثانية عشر من العمر، تم طعنها بمقصّ من قبل طالبة أُخرى في مدرسة جوزيه فيليكس. كانت المعتدية تكبر زميلتها بسنة واحدة. لقد تم تقديم هذه الحادثة على أنها حالة أُخرى من حالات التنمر والزعرنة. رغم الاعتراف بخطورة هذه الحالة، إلا أن قراءةً أعمق تستطيع اعتبار هذه الحادثة نتيجةً غير مباشرة لنصف قرن من النزاع الأهلي. لقد أضعفت الحرب النسيج الأخلاقي للأمة. وحالات عنف كهذه، غير متناسبة مع مسبباتها، حيث أدى خلاف بسيط في المدرسة إلى تهديد حياة فتاة، هي مؤشرات على الأذى العميق والخفي الذي لا تزال الحرب الأهلية توقِعُه.

لقد لاحظت الدراسات الاجتماعية، منذ سبعينيات القرن الماضي، ارتفاعاً ملحوظاً في معدلات الجريمة بعد النزاعات المسلحة. إحدى أول التقارير، وأكثرها اكتمالاً بهذا الخصوص، تمت كتابتها من قبل كل من دان آرتشر وروزماري غارتنر، اللذان كشفا عن ارتفاع في نسبة أعمال القتل والاعتداءات في أكثر من 100 بلد عانت حروباً أهلية، أو ضد دولة أُخرى. كانت الجرائم تُرتكب من قبل أناس عاديين، لم يكونوا ضحايا أو سجناء دورات الكراهية والانتقام، ولا بالضرورة مقاتلين سابقين أتخمهم العنف حدّ القرف. في تسعينيات القرن الماضي، أطلقَ عالم الاجتماع يوهان غالتونغ على هذه الظاهرة اسم «العنف الثقافي». يُفهم هذا التغيير، في وقتنا هذا، على أنه محصلة معايير وممارسات واعتقادات اجتماعية تشجع العنف كوسيلة كافية لتسوية النزاعات، عوضاً عن المحظورات التقليدية التي كانت تُقيد العنف، وتعتبره ملاذاً أخيراً. إنها عملية تحول كُلي لم يَعُد فيها إيقاع الأذى بالآخرين من الأمور المحرمة، ولا عرضة للرفض أو الندم، وإنما وبشكل متزايد مصدر قوة ومكانة ومال ورضى أخلاقي - مصدر مقبول ومرغوب.

العنف كثقافة، هو نتاج التعرض الشديد لمستويات خطيرة من العنف، وسيل الرسائل التي تبرر وتشجع وتمجد العدوان. وهو ينبع من مشاهدة المرء للعنف، ومن ثم اعتياده عليه، وأيضاً من الإصغاء للذات، وإقناعها أن هذا أمر جيد وضروري. ينتج عن هذا، أن التغير الثقافي يتضح من العنف المادي المتجلي في إحصائيات النزاع، ومن العنف الرمزي، وضمنه الإشارات الشفهية التي تنحاز للنزاع. الدراسات الأحدث التي قدمتها كريستينا ستينكامب، تسلط الضوء على دور النظام القضائي في تنمية العنف الثقافي. فالنظام القضائي، بصفته أداة ضبط اجتماعي، يمتلك إمكانية زيادة الروح العدوانية، بل وحتى إقناع الناس أن إيذاء الآخرين أمرٌ حسن. هذا المنظور يجعل المعايير ذاتها مصدراً للعنف الثقافي. إن مجتمعاً يُمجد استخدام القوة وتدمير الأعداء باستخدام القوانين، يزرع الأوهام في أذهان الناس، ويُشرعِن أفكار التخلص من الآخرين، وتشويه صورتهم، أو النظر إليهم كأجسام سامة تفتقر للحقوق والإنسانية، أو كنماذج شيطانية ثابتة.

قبل عشر سنوات خَلَت، قال عالم الاجتماع والقانوني الألماني بيتر فالدمان: بحقّ، إن كولومبيا قد أُبتُليت بشكل خطير بالعنف الثقافي، بسبب طول حربها الأهلية. في الوقت الحاضر، تؤكد الأحكام العرفية والأرقام المتعلقة بالعنف نظريته. الأرقام المُحدَّثة الصادرة عن مكتب قاضي التحقيق والشرطة الوطنية وسجل الضحايا، تُظهر أنه في العشرين سنة الماضية، كانت 40 % فقط من وفيات العنف ناتجة عن الحرب. لقد كان للقوانين الكولومبية الناظمة للنزاع ارتدادات مباشرة على معدلات الإصابات والصدامات، وعلى معنى الحرب ومضامينها الأخلاقية. وبالتالي، على التصورات الجمعية للحياة والموت. وبخلاف المعايير السائدة وقت السّلم، وضعت سياستنا العسكرية اعتبارات النصر فوق اعتبارات حقوق الإنسان، وفرضت التفريق في تصنيف المتحاربين. سياسةٌ العالم فيها منقسم بين الأصدقاء والأعداء. لقد صنّفت «قواعد الاشتباك» المعتمدة من القوات المسلحة الكولومبية مقاتلي حرب العصابات، بصفتهم كائنات مؤذية بالمطلق، وتهديداً دائماً وفتاكاً لا يمكن تحييدها أو اعتقالها. لذا، ولأن الحرب هي التي تحدد المعيار الذي يتبعه المجتمع، فقد تبنينا قراءة مدمرة لنزاعنا -قراءة لا تهدف إلى حل الخلافات، بل إلى البقاء على حساب تدمير الخصم. هنا، ليس ثمة فسحة للحوار.

إن النمو الشاذ للعنف كثقافة ليس أمراً مدهشاً في بلد أصبحت فيه الحرب هي الوضع الطبيعي للأمور لفترة طويلة. لم نعد مشدوهين أمام مواطن عدواني، بل نُعجب به ونستمتع بالأذى الذي يّلحقه بأيّما شخص يشاء. وبدون نقاش عام حول التأثيرات المستمرة للحرب، فإن العنف اليومي بين الناس أمرٌ حتمي، مثاله الطالبة التي وجدت في حقيبتها علاجاً بسيطاً وحاداً لمشكلة صغيرة مع فتاة أُخرى اختلفت معها.

مروان سوداح..كاتب شيوعي ممانع برأس من حديد

يتمتع الممانعون الأردنيون بنشاط مفرط، يتفوقون فيه على أقرانهم في سوريا ولبنان وفي مصر وتونس وموريتانية حتى. إذ لا يكفّون عن إرسال الوفود إلى دمشق للتضامن، بمناسبة ومن دون مناسبة، مع نظام الأسد. الناشط والكاتب والصحفي مروان سوداح عيّنة مثالية عن هذا النوع.

كل شهر، ومن غير تعب، يكتب سوداح كثيراً عن الصين وكوريا الشمالية وروسيا، وعن جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق في وسط آسيا، وعن إيران ف سوريا، وصولاً إلى كوبا وفنزويلا. يخلو ما يكتبه من الأفكار ومن الأخبار حتى. إنشاء محض يُبجّل أنظمة الحكم القمعية المناوئة للغرب فحسب.

وحسب سيرته الذاتية ، يترأس سوداح «الاتحاد الدولي للصحفيين والكتاب العرب أصدقاء وحلفاء الصين»، ويترأس «رابطة القلميين، محبي بوتين وروسية في الأردن والعالم العربي»، ويترأس «المجلس العربي للتضامن مع الشعب الكوري، ومناصرة توحيد شطري كوريا»، وكذلك يترأس «المجلسين الأردني والعربي للتضامن ومناصرة شعب الجبهة الوطنية الديمقراطية المعادية للإمبريالية في جنوب كوريا، ونصيرُ فرعها في بيونغ يانغ»، وبالطبع فهو مؤسس ورئيس «المجلس العربي الالكتروني للتضامن مع سوريا»، فضلاً عن تأسيسه وترأسه لأكثر من (15) تجمعاً آخر، معظمها عابر للحدود.

يُبدي سوداح تعلقاً خاصاً بكوريا الشمالية، فيكتب أنها بلد عظيم «بقيادته الزوتشيه، ومبادئه الثابتة التي لا يَنضب مَعينها ولا يَخبو أُوارها»، لأنّ «السؤدد العلمي الكوري الراهن لم يَسبق له مَثيل». لا يقف سوداح عند السؤدد الكوري الشمالي في الكرة الأرضية، بل يؤكد «كوريا (كيم جونغ وون) سَبقت غالبية دول العَالم، وتربّعت على عرش الكون» بجهود «المُطوّر الزاهر كيم جونغ وون»، وقبله والده «المُعزّز كيم جونغ إيل»، وقبله الجدّ المؤسس و«المُحرّر كيم إيل سونغ»، حسبما ما يكتب سوداح في الذكرى الـ69 لـ «ميلاد الدولة الاشتراكية الزوتشيه الكورية». ولا يمنعه ولَعه بالنظام في كوريا الشمالية أو غيرها من الأنظمة المشاكسة للغرب، من التوقف عند نظام ودولة أقلّ حدّة مثل أوزبكستان، حتى لو كان ما يكتبه عنها مجرد تخريف محض يجعل من اقتصادها مشابه لاقتصاد النرويج.

لـ سوداح اهتمامات فكرية وفلسفية الطابع، يكشف عنها متابعته النقدية الحثيثة، وتأمله ثم إعادة نشره - في موقع إنباء الذي يترأس تحريره-«خواطر أبو المجد»، التي يكتبها ضابط المخابرات السابق وسفير الأسد في الأردن، بهجت سليمان.

ورغم نشأته كـ شيوعيّ منذ سبعينات القرن الماضي، ورغم آلاف المواد التي كتبها، وآلاف المهرجانات واللقاءات والاجتماعات والوفود التي شارك فيها منذ سبعينات القرن الماضي، كماركسيّ عنيد، ظل سوداح مغموراً وخامل الذكر، إلا في مرة وحيدة ذكر فيها اسمه على نطاق أوسع. وكانت حين تولى منصب نائب رئيس «المركز الأردني التايلندي للتأمل وتطوير الذات»، الذي افتتحه سفير تايلند في العام 2010. آنذاك برز اسم سوداح على نطاق أوسع متّهماً -من غير وجه حق- بالتبشير والدعوة لاعتناق الديانة البوذية.

مجلّة عين المدينة نصف شهرية سياسيّة متنوعة مُستقلة

- لا تعبر المقالات المنشورة بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.

ayn-almadina.com
info@ayn-almadina.com

@AynAlmadina
/3aynAlmadina

عضو الشبكة السورية للإعلام المطبوع
SNP

الغوطة الشرقية

عدسة فادي الشامي - خاص عين المدينة